الفهرس

الروايـــة المغربية المكتوبـــة بالعربية

الرغبة والتاريخ

ابراهيـــم الخطيب

لا يريد هذا البحث أن يقوم بتقديم تاريخ للرواية المغربية المكتوبة بالعربية . ان طموحه يبقى دون مستوى الارادة الوصفية التى يتوفر عليها المؤرخ . ولذلك فمن الضرورى الاشارة الى أن الهدف المقترح ، هنا ، هو الطرح جزئيا لمشاكل الرواية المغربية من خلال عرض بعض موضوعاتها . وسيكون علينا ، تبعا لهـذا التحليل أن نقوم بالوصف الموجز للاشكال الروائية دون أن نتعرض العلاقات الشائكة التى يضعها على مستوى البحث تجـــاور اشكال وتعابير بدائية واشكال وتقنيات متقدمة . ويمكن القول أن الروائيين المغاربة الذين يكتبون بالعربية لا يزالون فى طـور التجريب (1) ، ومن شأن هذه الوضعية أن تجعلنا محرجين أمـام انتاجاتهم . غير أن الاحراج لا ياتى من كونهم لا يجيدون التخيل ، وانما لكون التاريخ الادبى الـذى ينتجـون فيـه لا يتمـدى عشرين سنة الا بقليل . ان الروايات التى تم اعتمادها هنا هى، حسب الظن ، أكثر الروايات المغربية المكتوبة بالعربية دلالـة على نوع التحولات التى عرفها هذا النوع الادبـى . كمـا أن

المشاكل التى تطرحها تبقى فى مقدمة مشاكله . ويمكن أن نضبف بان النقد الادبى ، فى المغرب ، لا يزال يعيد النظر فى هـــذه النصوص . واحيانا يطمح الى وضع خطاطة نظرية لهـا (2) . انه يقوم لذلك بعمل مزدوج : من جهة يحاول تجديد مفاهيمه الجمالية (وهو ما يفعله بصعوبة كبيرة) ، وفى ذات الوقت يعمل على تفسير القضايا السياسية بواسطة الابنيه الروائية الاكثـر تعبيرا عن وعى أصحابها . أن النقد الادبى يفضل النظر الـى الرواية كمجاز ، وهو بهذه المسلمة يضع نفسه بين فكى التفسير التاريخى الذى لا يرحم . وربما سيكون علينا أن ننتظر طويـلا مجىء لسنيين مبدعين يهتمون بالرواية حتى نستطيع أن نعيـد التوازن الى هذا الوضع المختل .

وتنبغى الاشارة الى أن عددا من المفاهيم المستعملة فـى هذا البحث قد أخذت مباشرة من عبدالكبير الخطيبى ، وان كان قد ادخل عليها بعض التعديل . وأنه من غير الممكن ، فى هـــذا الصدد ، اخفاء الاهمية التى يتوفر عليها كتاب كـ (الروايــة المغربية) بالنسبة للمفاهيم النقدية عن ممارستنا للرواية . واذا كان الخطيبى قد اهتم بالرواية المغربية المكتوبة بالفرنسية لاسباب سوسيولوجية (فى مقدمتها ــ مسألة اللغة) فانه من الضرورى القيام بنفس المهمة فيما يتعلق بالرواية المكتوبة بالعربية ، مـع تعديل فى مفاهيم التأسيس . غير أن البحث الذى أنجزناه لا يجد فى نفسه الكفاءة لادعاء القيام بذلك . لقد تم استعمال مفهـوم الاثنوغرافيا (3) الدلالة على الوصف الذى يقوم به الروائى لبعض اللحظات « العتيقة » فى مجتمعه المقبل على التبدل ، دون أن تكون لهذا الوصف صلة ببنية الرواية . أما مفهوم « البطل الايجابى » وهو ليس مفهوما محوريا عند الخطيبى ، فقد تم ربطه بالتصور الاخلاقى لدور الحـركة الوطنية . وأدخل مفهوم المثـاقفة (4)

للتعبير عن طريقة توظيف الروائي لواقع ((الغرب)) كجزء من بنية التخيل لعمله .

التاريخ والسيرة الذاتية :

لم يكن عبد المجيد بن جلون حين كتب سيرته الذاتية (في الطفولة) حوالي سنة 1949 يظن أنه قد دشن ، بطريقة متوترة تاريخ الرواية المغربية المكتوبة بالعربية . وحين نقول ((بطريقة متوترة)) ، فذلك لانه وضع هذا التاريخ بين فكين : مشكل السيرة الذاتية من جهة و ((وسواس التاريخ)) من جهة أخرى . فبعد كتابة (في الطفولة) باكثر من عشرين سنة سيكتب محمد زفزاف رواية (المرأة والوردة) وسيواجه نفس المشكل ولكن بحدة أكبر : كيف يستطيع أن يتحدث عن نفسه بوضوح ودون نزعة تطهرية ، وان يكون قد جسم ، في الوقت ذاته ، ((خط اتجاه)) لتاريخ بلاده ؟ ان هذه الوضعية لن تبقى شاذة اذا عرفنا أن ((تاريخ الادب المغربي المكتوب بالعربية كان يشكل جزءا من تاريخ الحركة الوطنية)) (5) . وهكذا سيكون الكاتب المغربي مطالبا باستمرار طيلة ربع قرن ، أن يسيس كتابته ولكن : : هل يمكن أن يفعل غير ذلك ؟ فهو ابن الحركة الوطنية وعليه ان يثير باستمرار ، داخل الكتابة ، مشكلة علاقته الفردية بتحولات هذه الحركة . غير أن الوضع لن يكون متشابها على هذا النحو : ففي سنة 1958 ، حينما كتب (عبد الله المروى) روايته (الغربة) لاول مرة (6) كانت عناصر الخلاف تبرز بشكل جدى . وهكذا لم يجد المروى بدا من أن يعلن تنصله من الحياة اليومية الخاملة التى ميزت بيئته التقليدية عقب الاستقلال داعيا الى الانتماء لفترة الحوار حين كان ((الغرب)) ، في سيرته الذاتية ، عنصرا محركا للدخول في التاريخ . ولن يكتفى عبد الكريم غلاب بعد ذلك (سنة 1965) بكتابة سيرته الذاتية في السجن بل سيكون عليه ،

باعتباره أطارا فى الحركة الوطنية ، أن يتحدث عن مسقط رأسه فى (دفنا الماضى) وأن يرفع صوته ، فى ذات الوقت ، بتمجيد هذه الحركة التى يدين لها بالولاء . ان الصورة كانت قد بدأت تتحدد أكثر : فالرواية المغربية المكتوبة بالعربية ، اصطبغــت بالعلاقة الازدواجية بين المعنى الفردى والمعنى التاريخى . لكن هذه العلاقة كان من الضرورى أن تؤدى الى تشنج احد المعنيين. ان المعنى الفردى الذى تعتبر السيرة الذاتية المحض تعبيرا عنه، سيصبح معرضا للقمع والكبت نظرا لشيوع المعتقدات والمظاهر التطهرية ، وكراهية العصاب واللاوعى . أما المعنى التاريخى ، الذى أصبح ذا حظوة بفضل انعكاسه الدائم فى مرآة الســـرد فسيغدو قريبا جدا من التصورات اللاتاريخية نظرا لانفصالــه التدريجى عن الكتابة ، واكتسابه صفة « التخطيطات » المبسطة والمعرضة مع ذلك لكثير من الابهام .

فى هذا الاطار كان الكاتب المغربى مطالبا أكثر بالتخلــى عن استقلاله وعن رؤيته الخاصة للواقع اليومى ، لكن المقابل كان ضئيلا : فبعد (فى الطفولة) التى كانت صريحه فى بعض الجوانب ، شديدة الارتباط بعالم الكاتب الذاتى . نجد أن كتاب الرواية كانوا يجدون أنفسهم فى مازق . فاما أن يتحدثوا عـــن أشياء « تاريخية » لم يكونوا يعرفونها معرفة روائية (كما حصل بالنسبة لعبد الكريم غلاب فى رواية « المعلم على » التى تثير موضوع تأسيس نقابة مغربية) ، أو أن يصمتوا (وهو ما حدث بالنسبة للعروى) أو أن يكتبوا فى موضوعات فنتازية تغدو ، بعد وقت وجيز أشبه بنزوات لم يكن ممكنا ترويضها (محمد عزيز الحبابى فى « اكسير الحياة » ــ روايات الهلال 1974) . وحين يكتب محمد زفزاف (المرأة والوردة) ببعض التشنج ، نظــرا لانه يتحدث عن نفسه ، فان روايته تغدو موضوع نقد شديد ، من نقاد اليسار ، لانها لا تثير بــ « كيفية صحيحه » المشاكل

السياسية ووجهة نظر الرأى العام تجاهها . ذلك أن النقد الادبى والروائى بصفة خاصة ، كان قد وقع فى الفهم السوقـــى للسوسيولوجيا : فالرواية ، أما أن تكون ((شهادة)) علـــى عصرها كما يفكر غلاب ، باعتبار الشهادة ((المثــال الاسمى لارتباط الادب بالحياة (7) او لا تكون . ان عبد الكبير الخطيبــى تريد أن تبرز فعاليتها مهما كان الثمن ، عن طريق حضورهـــا الاجتماعى ودورها التاريخى . الا ان التاريخ الذى تتحدث عنه يصنع بدونها ... فتبقى الرواية المغربية ، مثل جميـــع الايديولوجيات ، سجينة الوضعية التى تتمنى أن تحتضنها)) (8) ولكن هل كان ثمة مخرج ؟ ان الكاتب المغربى ، كان يلتمس منه القيام بعمل مزدوج : أن يساهم فى خلق الرواية ، وأن يثبـت فى الوقت نفسه حضوره فى ميدان الجدال السياسى كنصير للتقدم فهل اذا انجز أحدهما ، نلومه على أنه لم ينجز الاخر بالكيفية التى نـــريـــد .

الاثنوغرافيـــا والواقعيـــة .

تاتى سيرة عبد المجيد بن جلون الذاتية كعمل روائى يهدف الى ابراز مجموعة من الخصائص الفردية التى تخص الكاتب ، كما يهدف الى نقد بعض الخصائص الوطنية . وفى هذا الاطار ، فان مدينة ((مانشستر)) ، حيث قضى الكاتب جزءا من طفولته كانت مكانا مناسبا لوصف هذه الخصائص او نقدها ، ولكن عبر مزاج يشعر بالغربة ويجهل مكانه الحقيقى . ((واستولى على شعور مرعب هو أننى خلقت لاكون غريبا . ففى البلاد التى أتينا منها كان الناس ينظرون الى على أننى غريب . وفى البلاد التى يقال أننى منها نظر الناس الى ايضا على اننى غريب))(9). لقد كتب بن جلون (فى الطفولة) حينما كان فى مصر مبعوثا، ليتلقى تعليمه، من طرف الحركة الوطنية . وهناك كان عليه أن يخاطـــب قـــراء

محددين ولهذا استعمل للدلالة على بلاده كلمة (مراكش) بدلا من (المغرب) . أن العملية كانت تبدو هكذا : أن ينقل الى القراء المصريين مشاعره نحو طفولته حينما كان فى ((مانشستر)) ، وان يحدثهم ، فى ذات الوقت ، عن صورة بلاده كما تراءت له فترة من الزمن ، هناك . وهكذا كان الطريق الذى سيمر منه السرد محفوفا بالانحرافات : فالطفل الذى يشبه نشأة غربية كانت خصائصه الوطنية تبدو له شيئا مبررا للسخرية . لكن السن يكون القراء غير مغاربة ؟ من هذه النقطة يصبح الحديث الاثنوغرافى امرا طبيعيا . ويصبح الكاتب مرغما على ادخال بعض التحولات التى تبدو ، على لسان طفل ، مسألة مقبولة : انه سيكون بامكانه استعمال (هم) للدلالة على هؤلاء ((المراكشيين)) ما دامت (نحن) تخصه هو وتخص الانجليز الذين ((الفهم)) (10) . غير أن الحديث الاثنوغرافى سيغدو أكثر احراجا عندما يعود من فاس ، بعد زيارة لها بصحبة ابيه ، فيطلب منه أصدقاؤه الانجليز أن يحدثهم عن بلاده . اذ ذاك سيكون عليه أن يدعى بانه شاهد كل شيء : المسيد (11) ومراسيم الاكل (12) وحفلة الزواج (13) والحمام التركى (14) والاسواق (15) وطريقة حلق الشعر (16) وأزياء النساء (17) والامية (18) والمطر — الدخان (19) الخ . ان هذا الحديث يقال فى اطار ايديولوجى محدد : فالمتكلم طفل لا يعرف أى شيء، ولكنه اتفاقيا ، يعرف كل شيء . ويعرف بالضبط مظاهر (العتاقة ((فى الخصائص الوطنية لبلاده . وهذه المعرفة تغدو مضاعفة ، وذات وقع مختلف ، عندما تقال لـ ((الآخر)) . ونحن حاولنا تبين بنية هذا الوصف الاثنوغرافى ، لوجدنا أنها تتلخص فى معنى الاختلاف ، الذى يصبح فى بعض الاحيان تعارضا مع ((الشكل الغربى)) للحالات الموصوفة . لكن الاختلاف يبعث على شعور أكثر جدية من الوصف الساخر ، وحينذاك يكون بامكاننا ان نتساءل : هل كان الكاتب ، بواسطة تلك

الوصف ، يعبر عن ضرورة تاريخية ؟ ان أحمد الصفريوى سيفعل فى سنة 1954 ، نفس الشىء ، لكن بطريقة محايدة . ومع ذلك سيكون محط انتقاد شديد من طرف مثقفى الحركة الوطنية الذين رأوا فيه مجرد كاتب فلكلورى . انه ينبغى الا ننسى ان ما كان مقبولا سنة 1949 ، قد لا يبقى كذلك سنة 1954 . وهكذا فان حرية الكاتب تغدو محل سيطرة من التحولات العنيفة التى يعرفها التاريخ ومن اضطراب المفاهيم الاستيتيقية .

ألم يكن غلاب ، بدوره ، قد وقع تحت طائلة الاثنوعرافيا حين كتب (دفنا الماضى) ؟ ان المسالة ، هنا تثير بعض التناقض : فالكاتب نفسه فى مقدمة الرواية ينفى أن يكون مجرد « سائح » . انه يقول : « ولم تصور (الروايه) الاحداث تصوير السائح الذى يعيش سياحته بدون قلب ، كما يفعل بعض الكتاب الذين يصورون ملامح من مجتمع الماضى بعقلية منظوريه ، دور الكاتب فيها أن يخرج الفلكلور لا أن يكون له هدف ثورى من وراء الفلكلور » (20) فهل كان غلاب يتوفر على شعور بالذنب ؟ انه من الصعب القيام بحسم نهائى ، خصوصا وأننا نعرف أن الواقعية قد يكون لها وظائف متباينة . لكن غلاب ، ذاته ، لا يستطيع أن ينكر أنه ، انطلاقا من « حسه الواقعى » (21) قد قام بوصف دقيق للحياة اليومية فى (درب المخفية) بفاس ، أو فى منزل (الحاج محمد) مستعملا فى ذلك عناصر من سيرته الذاتية. هل يحتاج الامر الى أمثلة ؟ هناك الحديث عن « المنصورية » (22) و « الجلابية » (23) و « البلغة » (24) . وهناك أيضا بعض الهوامش (25) التى تاتى كما لو كانت خطابا لذلك « الاخر » الذى تخيله عبد المجيد بن جلون ، بالاضافة الى فصل خاص بوصف « ليلة كناوة » (26) . وهو فصل يحفل بحس « الغرابة » وتبدو كتابته اشبه بتسجيل طقس دينى يؤديه « شعب بدائى »

نظرا لانها تلح على معنى اللاعقلاني والوحشي فيما يحدث . انه من المهم أن نسجل أن غلاب وصف كل ذلك بطريقة توحي بانه غير موجود : ان الوصف هو وحده الذى يتكلم ، لكن فى أفـــق انثوغرافى ، يتمتع بروح ((أهلية)) ، فهل كان الكاتب يأمـــل أن يكون له ((هدف ثورى)) من وراء ذلك ؟ على انه من الواجب ان نقارن بين وصف غلاب المظاهر العتيقة من تقاليد بلاده ، وبين وصف بن جلون لها : ففى الوقت الذى يتبنى بن جلون أسلوب السخرية ، القاسية فى بعض الاحيان ، وغير الملائمة تاريخيا مع مطالب الحركة السياسية ، نجد أن غلاب اختار أسلوبا محايدا يتم فيه اعطاء الحظوة لما هو غير شخصى ، رغم ان الفتـــرة التى كتب فيها روايته كانت تحتاج الى ما هو اكثر من الواقعية سيكون من الضرورى ، بعد ذلك ، محاسبة الكاتب على انه لم يضع نفسه داخل نصه ، وأن واقعيته الشكلية كانـــت تبقـــى دون الكتابة . على أن الامر لا يتعلق بالاثنوغرافيا فى حد ذاتها وانما يتجاوز ذلك الى مشكلتها كتعبير تاريخى . لقد حــــدد الخطيبى وضعيتها ، فى أطار الشكل الروائى ، قائـــلا : ((ان الرواية الاثنوغرافية والفلكلورية فى المغرب ليست ظاهرة معزولة بل هى امتداد لتقليد فرنسى فى افريقيا أنتج أدبا غزيرا . وهذا النمط من الرواية ، يطابق على الصعيد السياسى فترة توســـع الامبريالية . وعلى الصعيد العلمى ازدهار العلوم الاجتماعيـــة وخصوصا الاثنولوجيا)) (27) . وهكذا سيكون علينا أن نتساءل كيف استطاع غلاب أن يخطىء الظروف التاريخية للاثنوغرافيا؟ ان المسالة تتعلق بالواقعية . لكن غلاب ، فيما يبدو ، كـــان يخطىء المسافة بين الواقعية والاثنوغرافيا ، وهى مسافة دقيقة ومعقدة . ولذلك فانه ، عندما سيكتب (المعلم على) ، ســـنة 1971 (وهى رواية تجرى احداثها الاولـــى فى ((أوســـاط)) الدباغين التقليديين) سيجد نفسه محرجا : فها ان اباه كـــان

دباغا ، وعليه الان ان يتحدث عن تلك ((المهنة العتيقة)) التي توشك ان تتلاشى تحت ضربات التقدم الصناعي .

ان الموقف ، هنا ، يعتبر نمونجيا ، ومع ذلك فان غلاب كان يأمل أن يكون وصفه لتلك الاوسط يسير على طريق الواقعية التي عرفها عند روائي مصري ، مثل نجيب محفوظ . وهكذا فان التفاوت الحاصل بين الواقعيه والاثنوغرافيا انما يعكس (او يضاعف) تفاوتا اخر ، يبدو بوضوح عند غلاب هو التفاوت في العلاقة بين الحدث الروائي و ((قيمته)) التاريخية : لقد اراد غلاب لروايته : أن تكون ، باستمرار ، استعادة قومية لمفاهيمه عن التاريخ الوطني ، فهل نسى أن الرواية التاريخية لا تكتب الا خارج عصرها ؟

الايجابي والاشكالي :

العلاقة التي أشرنا اليها ، بين الحدث الروائي و ((قيمته)) التاريخية تشكل طابعا مميزا ، ليس للرواية المغربية فحسب ، وانما للرواية العربية عموما . وعلى الخصوص تلك الرواية التي شاركت ، منذ الحرب العالمية الثانية ، في ملاحقة التاريخ الوطني للبلدان العربية او في تلقي أصدائه . انه من اللازم ان نلاحظ ، على المستوى النظري ، أن الرواية التي تلاحق التاريخ تحكم على نفسها بالازمة : فالتاريخ ليس فقط لا يبقى على صورة ما ولكنه يراجع نفسه ويناقضها ، هذا فضلا على ان الرواية ليس هدفها تقديم الشهادة وانما التعبير عن حرية الكاتب في التعامل . روائيا ، مع الحدث التاريخي . لكن هذه الملاحقة ، التي تحدث عنها الخطيبي (28) لا تحدث بطريقة متجانسة عند الروائيين المغاربة : ان علاقة كل واحد منهم بالحركة السياسية ، وتقديره للمسافة بين النوع الادبي والتاريخ وفهمه لتعقد العلاقة فيما بين التخيل وبنية الوقائع الموضوعية

السابقة على الكتابة ــ كل تلك عناصر تساهم فى تنويع هــذه الملاحقة الاشكالية . ان غلاب مثلا ، وهو اطار فى الحركــة الوطنية والان فىحزب الاستقلال، يعتبر التاريخ سيرورة ايجابية : انه لا ((يحدث)) الا ليبرهن على تحولات كان ينبغى أن تقع . أما العروى ، الذى كان مقربا الى المهدى بنبركة ، فانه يــرى التاريخ فى المستوى الروائى ، على شكل حماس مؤقت يتلــوه خمــود : ان الحيــاة اليومية التقليدية هى التى تحمــل بــذور ايقاف التاريخ باعتبارها واقعا تكراريا مطبوعا بالعادة . ويشعر ربيــع مبــارك بــان ايجابية التــاريخ شىء نسبى : ان مــا يهــم ، فى رأيــه ، هو كيف تتم ((ممــارســة)) التــاريــخ بشكل فردى . وهنــا فــان التحيــات تبدو أكثــر بكثيــر من مشاهد النصر . فالايجابية ليست كسبا مطلقا ولكنها قبــول بالتنازل أيضا . وفيما يبدو ، فان الحبابى يرى ا ن التاريــخ ((حديث مقنع)) . فيكفى ان يكون القول مقرونا بالعمل حتــى تصبح الطموحات أمرا محققا . لكن القول بالتحول التاريخــى يقتضى قبل ذلك أن نشعر بأن التاريخ يسير فى اتجاه أفضل .

ان هذه الرؤى للتاريخ ، يتم التعبير عنها بنوع من التعقيد، فى روايات هؤلاء الكتاب . وبامكاننا أن نصنف هذه الروايات ، بحسب محتواها التاريخى ، على النحو التالى :

1 ــ روايات ذات محتوى تربوى (29) (دفنــا الماضى ، جيــل الظمــا)

2 ــ روايات ذات محتوى اشكالى (الغربة ، الطيبون)

اننا نعنى بالمحتوى التربوى خضوع ((البطل)) الروائــى لاختيار احادى سرعان ما ينتهى به الى اعتقاد يقينى بان ما يفعله هو ما ينبغى أن يفعل . ان المنظور الروائى يغدو هنا منظــورا ينطوى على قدر كبير من الايجابية . أما المحتوى الاشكــالى ، فنحن نقصد به تنوع الاختيارات التى يتعرض لها ((البطــل))

الروائى والتى تؤدى به ، فى غالب الاحيان ، الى عدم الحسم فى شانها : انه يقوم باعمال معينة ولكنه لا يستطيع ان يعتبر تلك الاعمال معايير لحياته . هناك ، دائما ، هوة بين ما يفعل وما ينبغى أن يفعل . وهكذا ، فان المنظور الروائى يتشكل ، بالنسبة للمحتوى الاشكالى ، كمنظور ((أزمة)) أو ((انحطاط)).

لكن المحتويات معا ، من حيث الشكل ، لا يتم التعبير عنهما بنفس الطريقة . بعبارة أخرى : ان المحتوى الاشكالى مثلا ، وهو أغنى من المحتوى التربوى ، لا يعبر عنه ، عند كاتبين مختلفين بنفس الشكل . ان هذا واضح من النموذجين اللذين اخترناهما : ففى الوقت الذى ينوع المروى مستوى كتابته (الانتقال من السرد الى الحديث الداخلى الى الاسترجاع . تغيير الضمائر الخ) نجد مبارك ربيع يختار الكتابة المسترسلة : انه يفضل السرد الذى يتضمن الفعالية الحكائية (وهو ما لم تستطع اتجاهات الواقعية التغلب عليه) والابقاء على الرؤية البنائية له . ونجد ، كذلك ، فى النموذجين اللذين اخترناهما للرواية ذات المحتوى التربوى نفس الاختلاف فى الاساليب : فاذا كان غلاب كربيع مبارك ، يفضل الطريقة التقليدية فى تصميم أحداث الرواية ، فان الحبابى ، الذى يبدو أكثر صرامة من غلاب ، يبقى على الوحدة الحكائية ولكنه يدخل العناصر الاكثر بدائية فيها : كالمجهول والمفاجاة ، وعدم التوقع ، مما يعطى لـ (جيل الظما) طابعا شبه بوليسى . ان هذا التفاوت فى الاشكال يعكس تفاوتا موازنا فى الروافد الثقافية : الم يتلق المروى والحبابى ثقافتهما باللغة الفرنسية ؟ أما غلاب وربيع مبارك فقد كانت الثقافة العربية هى أساسهما النظرى . لكن هذا لا يستطيع أن يفسر كل شىء . وانه يحق لنا أن نلاحظ ، بغرابة ، كيف يتم التعبير عن المحتوى الاشكالى بطرق غير

اشكالية . لكن أليست الرواية المغربية المكتوبة بالعربية لاتزال فى طــور النمــو ؟

وبما ان هيكل الرواية التربوية لا ينطوى على التساؤل ، فان ((أبطالها)) يكونون ، فى الغالب ، ايجابيين . ويعطى (عبد الرحمان) فى (دفنا الماضى) نموجا استثنائيا عن هذا النوع من الشخصيات . ان من صفاته الاساسية النمو بسرعة كبيرة ، لكن الوعى فى هذا السياق يغدو سابقا على الكائن : ألن يتساءل (عبد الرحمان) فى وقت مبكر من حياته قائلا : ((هل ساكــون فرانسوا أم ساكون البارغى ؟)) وهكذا وجد غلاب نفسه محرجا فالمسألة تتعلق بمازق حكائى : كيف يستطيع أن يسجل وعــى (عبد الرحمان) بمعزل عن حياته الذاتية ؟ . ان هذا المشكل ، الذى فشل غلاب فى اعطائه الحل المناسب (لاسباب تتعلق بارتباطه بالحركة الوطنية ارتباطا غير نقدى) . هو الذى دفع أحد النقاد لان يطرح التساؤل التالى : ((أليس غريبا أن نرى هذه المثالية فى الحب تكاد تصير عجزا جنسيا عند شاب يفيض حيوية وفتاة غربية (30) تلتهب شهوة (31) ؟ لكن الامر لا يتعلق بالعجز الجنسى وانما بالفهم التطهرى للانسان الايجابى . فلكى يكون (عبد الرحمان) ((وطنيا)) ــ اى ايجابيا بمعنــى مــن المعانى ــ فانه ينبغى أن يمارس الزهد وأن يكون ((قــدوة)) تستطيع أن تكون موضوعــا للتقليد والمحاكاة (32) . غير أن النتيجة على المستوى الروائى ، لا تكون مجدية ، وسيكون غلاب مطالبا بان يدرك أن ((البطل)) الايجابى ، اذا كان يعبر عن واقع سياسى ضرورى ، فانه لا يتوفر على قوة جمالية (33) . ومــن السهل التعرف على سبب ذلك : فالعلاقات المقامة بين النظــرة الى العالم لديه وبين وجوده الشخصى هى أبسط وأشد استقامة واكثر تصلبا وفقرا مما هى عليه عند شخصية اشكالية : ألــم

يكن (عبد الرحمان) يتميز ـ بمثاليته الخالصة وثقته الساذجة وأسلوبه الخطابى ؟ اننا سنجد م. ع. الحبابى ينتهى فى (جيل الظما) الى نفس النتيجة . لكنه يصل اليها من سبل أخرى . انه يقدم (ادريس) منذ البداية ، وبشكل ملتبس ، كما لو كان شخصية اشكالية تتميز بالحيرة : ((لقد رجع الى المغرب منذ ستة شهور وما زال حتى الان فى دنيا من الحيرة والغموض لا يجد سبيلا الى الاختيار ...)) (34) لكن ، سينتابنا كثير من الاستغراب بعد ذلك ، عندما نلاحظ أن (ادريس) كان قد حدد لنفسه كل شىء ، وبطريقة تهتم بالتقرير لا بالصياغة . وبما أن مضمون (جيل الظما) هو نقد المثقفين فان الرواية تمتنى فقط بتحديد موقف (ادريس) من ((أولئك الذين يقفزون الى نهاية المضمار فجاة)) (35) . غير ان (ادريس) هو ليس تقدميا ، بل فى اعماقه رجعى ، وهكذا سيكون على الرواية مهمة شاقة هى البرهنة على أن التاريخ ((يسير بايجابية)) ، وأن (ادريس) قد يصير تقدميا يفكر لصالح ((عالم ما بعد الاستقلال)) (36). ولن يكون بامكاننا تخيل عناصر هذا التحول دون أن نذكر أن أحداث الرواية ، برمتها ، تقع فى زمن يوم واحد . أفلا يحق لنا ، بعد ذلك ، أن نتساءل بصدد سذاجة الروائى ؟

على أن الامر لا يتعلق بسذاجة الروائى فحسب . فهذا العالم المتسق ، المفهوم بوضوح ، والقابل للتفسير هو ، على اى حال ليس عالما روائيا ، ولا شك ان غلاب كان يعتقد ان (دفنا الماضى) هى ((نشيد وطنى)) يقال فى وقت متاخر لالهاب الحماس (37) . نستطيع أن نظن أن الحبابى ، وهو يكتب (جيل الظما) كان يفكر ــ بدوره فى انه يقدم ((اعترافا تاريخيا)) لنفسه ولبلاده ، لا يقبل التاجيل (38) .

لكننا سنجد ، بصدد العروي وربيع مبارك ، أنهما يقدمان نموذجين مختلفين للشخصية الروائية . ويبدو من الضروري ان نلاحظ ان رواية (الغربة) قد تم التفكير فيها كتشكل من أشكال ((التعميق على هامش الاحداث)) . وعلى العكس من ذلك ، فان ربيع مبارك ، الذي يعطي انطباعا بانه كاتب محترف قد تصور روايته كتشكل ((موضوعي)) للسيرة الذاتية (39) .

ان العروي يقدم (ادريس) كشخصية تخلت عن السياسة بسبب الازدراء أو الاحسان . وعندما يعود من فرنسا بصحبة (مارية). قبيل استقلال بلاده ، فانه يجد أن القيم اليومية لا تزال لم تتغير في البلدة التي كان قد خرج منها . وتجد (مارية) أنه من المستحيل عليها البقاء هناك وهكذا ((طالبته بمغادرة البليدة ولم توعز اليه أن يلحق بها)) (40) يحاول (أدريس) أن يعيد صلته بالذين عرفهم قبل ذهابه الى الخارج للدراسة : ابوه ، أخته ، شعيب ، لكنه يكتشف أن ما كان يقال من قبل لازال يشكل فكرهم اليوم : كراهية المعرفة (41) . حب الاستقرار و ((الخدمة)) (42) لعب الكارنة الخ . حتى شعيب ، الذي لعب كل دور ، ولبس كل لبوس . نطق بكل لغة وهاجم كل متطاول عنيد)) (43) والذي كان يرسل اليه رسائل قلقة (44) كان ينتظر عودة (ادريس) لكي يستفسره . غير ان (ادريس) مع ذلك ، لا يشعر بعزلته عن هؤلاء فهو يملك ((الايمان الذي يحمي من الحكم القاسي . من عقاب الوحدة والانعزال)) (45) ولذلك يفضل البقاء لمناجاة (مارية) ، التي ((لا سبيل الى الالتحاق بها (46) .

القراءة التي قمنا بها (الغربة) الان ، لا يمكن اعتبارها كافية . وعلى القارىء أن يعتمد طريقة فهمه للنص ، وهنا فاننا امام رواية غير سهلة التاويل . واذا كانت (دفنا الماضي) تسمي الاحداث التاريخية باسمائها (الظهير البربري ، حوادث

الدار البيضاء ، وادى زم اكنول الخ) فان (الغربة) لا تهتم بذلك ، بل هى تدخل على العناصر الواقعية التى تتالف منها عنصرا رمزيا يساهم فى خخلتها . ان (ادريس) شخصية عنيدة ، ليس من السهل الامساك بها . وهذا أمر لا شك فيه. وسيكون علينا اذا أردنا مراقبة هذه الشخصية بوضوح ، أن ننظر اليها من خلال «وعى» الذين يحيطون بها . واذ ذاك سنكون مطالبين بقراءة مزدوجة . أما (الطيبون) فتقوم على بنية كلاسيكية للسرد : فالراوى هو الذى يحمل مسؤولية الرواية . ومع ذلك تبقى شخصية (قاسم) كما لو كانت قابلة لان تفلت من التعريف . وأنه يبدو ضروريا أن نلاحظ باعجاب ذلك النمو لشخصيته بموازاة «انحطاط» صديقته (هنية) . لكن سيكون من حقنا أن نتساءل ما اذا كان وعى (قاسم) يسير فى الطريق الصائبة ؟

ان (قاسم) هو من قبيل تلك الشخصيات التى «تبحث عن نفسها» ، ومن هنا كانت حياته معرضة لتجارب متنوعة : فـ (غنام) الانتهازى (47) يعلمه القبول بالتنازل . وتمطيه (هنية) شعورا بان «السعادة» هى فوق كل شىء» (48) . أما (النورى) ، أستاذه القديم الذى أصبح متصوفا ، فيأخذه لـ «معاينة التجربة» (49) . ويشرح له (عزوز) ، المسؤول النقابى البراغماتى ، أن الديمقراطية شىء وممارستها شىء آخر (50) . هذه التجارب تقول لـ (قاسم) : انك امام عالم منحط ، والقيمة التى ستختارها لنفسك لن تكون سوى نسبية. وبدون شك ، سيكون التحاقه بعزوز فى نهاية المطاف (51) أمرا غير حاسم : الم يكن يعتبره شخصية متقلبة او غامضة ؟

انه ليس من الصعب ملاحظة أن المحتوى الاشكالى عند ربيع مبارك والعروى يتميز بقيامه فوق «مشكل سياسى» واضح (52) . لكن (قاسم) و (ادريس) انما يبحثان عن حل

انطلاقا من امكانياتهما الخاصة : وهكذا فالبطل الاشكالى لا يستطيع ان يكون سوى شخصية تتطلع الى مثال غير موجود، لانه ليس بالامكان تحقيقه .

الروائـــى خارج بلــده

يشكل الغرب .. احدى الملاقات المحظوظة فى الرواية المغربية ، ولقد بدأ مثيرا ان يخصص غلاب فصلا مستقلا مــن (دفنا الماضى) للحديث عن علاقـــة مفاجئة بين (مادلــين) الفرنسية وعبد الرحمان ، المناضل الوطنى (53) : اليس معنى ذلك ان الكاتب كان يفكر فى « غربه » ؟ ان المسالة ، اذن ، لا تتعلق ببعد مكانى . وفى هذا الصدد ، فان تتحدث روايـــة مغربية عن الغرب لا يعتبر امرا غير عادى . وسيكــــون بامكاننا ان نلاحظ ان الرواية العربية ، ظل الغرب بالنسبــة لها « مكانا » ممتازا لطرح مشاكل المثاقفة ، الى الان .

فقد اتيح لعلى الدوعاجى ، فى روايته القصيرة الشبيهة بالخواطـــر الذاتيــة ، (جولة حول حانات البحر الابيــض المتوسط) (54) ان يتصور الغرب امرأة ، وان يجعل كتابته ، التى تعتمد المقابلة ، وسيلة لاقتناص السخرية والتعبير عـــن شهواته الباطنية . وعلى العكس من ذلك ، فــان توفيـــق الحكيم ، الذى يكن احتراما خاصا للغرب ولتراثه الثقـــافـــى ، سيجد نفسه سنة 1938 فى (عصفـــور مـــن الشـــرق) (55) مضطرا الى ان يعبر عن العلاقة التى تربطه بـــ « الاخر » فى اطار مفهومى : فالملاقة (الغرب = الماديـــة ، الشـــرق = الروحانية) غدت اكثر توترا ، وعليه فى ظروف ازمة السيـاسة الاستعمارية ، ان يعبر عن قبول الكاتب المستعمر (بالفتح) للعزلة فى كيانه الشرقى . وسيكون بامكان كاتب سودانى ، هو الطيب صالح ، بعد ثلاثين سنة ، ان يسجل فى روايتــــه

الاولى (موسم الهجرة الى الشمـال) (56) ذات الاسلـوب المتقدم ، الجانب الاكثر عنفا فى هذه الملاقة : فلم تعد المثاقفة تعبيرا عن التغير الذى ينتاب الحياة اليومية ((الراكدة)) فقط، وانما صورة أخرى للاحتقار الاستعمارى وما يتولد عنه مـن بنيات عنفية . ان المسافة بين الدوعاجى والطيب صالح قـد اقتضت تحولات هامة على مستوى الشكل : أليست الادانـة هى غير المقابلة أو السخريـة ؟

1) ان (فى الطفولة) تستطيع أن تكون نمونجا غير عادى للتعبير عن المثاقفة . فالامر هنا لا يتعلق بـ ((جولة)) (كما هو الحال عند الدوعاجى) قام بها الكاتب . وانما بحديث عـن ((التربية)) . وفى هذا الصدد يبدو أنه من الممكن النظر الـى (فى الطفولة) باعتبارها قريبة الشبه من نوع روائى يتركز فيه الاهتمام على وصف نشاة ((الابطال)) . وعلى أى حال فهـذا النص هو مزيج من التخيل الروائى والسرد ، ذى التلقائيـة اللامحدودة ، الذى يعتمد السيرة الذاتية . مع ان هدف عبد المجيد بن جلون كان هو القيام ((بحكاية طفولته)) ، الا انه كان قد وجد نفسه مستعدا الى أن يعطى لذلك ، فى لحظات معينة، طابعا رومانتيكيا مختلطا بالغرابة : ألم يكن الكاتب يتحدث عن طفل فى بلاد ليست وطنـه ؟

انه من الضرورى تحديد ان هذه ((البلاد التى ليست الوطن)) لم تكن غير المدرسة واسرة آل باترنوس . ونستطيـع أن نلاحظ أن المدرسة ، التى أشعرت الراوى بوجود الفـوارق الدينية ، قد ساهمت ، الى حد ما ، فى تكييف رؤيته الى بلاده، الامر الذى نتج عنه ذلك الوصف الحاد والقاسى الذى تحدثنا عنه من قبل كشكل من أشكال الاثنوغرافيا . لقد كانت الصورة تصل اليه عبر ((الخرافة)) وبواسطة المحتوى الايديولوجـى للتعليم فى مانشستر : ((كان ذكر مراكش يثير فى ذهنى صـورا

متعددة من الخرافات التى كنت أسمعها . لقد أختلطت فى فكرى ببلاد الزنوج ... فقد قلقت اذ لم اكن أتتبع أنباء البلاد من أمى وحدها ، ولكننى كنت أسمعها فى المدرسة أيضا » (57) لكن المدرسة كانت ، فى جانب آخر ، تجعل منه شخصا مغتربا عن لغتـه (58) ، تلك « اللغة التى يقولون عنها انها اللغة العربية » (59) . و هكذا سيكون على أهله ، فى فاس ، أن ينظروا اليه من خلال غربته المزدوجة : ألم يكن هو نفسه قد شعر بذلك ؟

على ان اسرة آل بلارنوس ستكون ، بالنسبة له ، نموذجا مختصرا للحياة اليومية عند الغربيين . وفى الواقع فان كثيرا من الانتقادات التى كان الراوى يأخذها على أولئك « الزوار الغرباء » (المراكشيون) (60) كان مصدرها اعجابه الذى لا حد له بتلك الحياة اليومية التى تتوفر على عدد من الميزات : تقاليد القراءة ، الجو المنزلى ، علاقات الاخوة ، بالاضافة الى ذلك النضج العقلى الذى يتميز به الصغار . وسيكون من المثير للاستغراب ان نلاحظ أن عبد المجيد بن جلون رغم قصر المدة التى قضاها فى بريطانيا ، قد ظل وفيا لذاكرته الى اليوم : انه لا يزال يترجم عن الانجليزية كتبا تخص بلاده . وحين ينشر كتاباته الذاتية ، ذات النكهة العصامية الخاصة ، فانه يدافع بحرارة عن مبادىء الرجل الليبرالى المتزن ، نموذج القرن التاسع عشر .

2) تعبر (الغربة) عن « توتر » العلاقة بالغرب . وبدون شك فان هذه العلاقة اصبحت تشكل جزءا لا يتجزأ من وعى الانسان الذى كان مستعمرا . انها تعبر عن الرغبة الذاتية فى التغير والمعرفة ، هذه الرغبة التى تغدو ، فى كثير من الاحيان، أشبه بالمستحيل ، لكن ينبغى الا نثق فى امكانية تقديم شرح كلى لهذا النص ، ذى التركيب الصعب ، وعلى اى حال ،

من الضروري أن نتصور أن (مارية) وهي من أصل مغربي لا (تمثل) وحدها الغرب بالنسبة لـ (ادريس)، بل هناك صديقتها (لارا) والاستاذ (يوليوس)، الذي فضل الاقامة في المغرب، ان (لارا) هي مناضلة ذات مشاعر أممية، جاءت الى باريس سنة 1932 لانها كانت « تؤمن بالغرب وبحريته » (61) لكن ظروف الحرب زعزعت ثقتها . أما (يوليوس) فقد « سئم بلع الكتب والنقاش الحار والمبارزة في الشوارع » (62) : انه يمثل المثقف الاوربي الذي لم يعد بامكانه القيام بأي شيء غير « ملاحظة » الاخرين بحياد مدهش، وأحيانا تجاهلهم . وتعكس (مارية) صورة المراة الاوروبية التي كانت ذات يوم تذكي الحماس، فاذا بشعلتها تخبو : « ها هي الان تغيرت والزمت الصمت » (63) . ويلاحظ (ادريس) ان عواطفها قد شاخت الى درجة انه لم يعد يرغب في عتابها (64) .

ان الغرب عند العروي، يمتاز، حسب الملاحظات السابقة، بتمزق وعيه : فالتزام (لارا) الذي يؤدي الى اليأس، يقابله تخلي (يوليوس) عن كل شيء حتى عن صدق المثقف . اما (مارية) فان حماسها الذي تميزت به أيام الدراسة، قد تحول الى (تراجع) بمجرد انفجار موجة العنف . أليست (الغربة)، اذن، اغترابا عن الذات والتاريخ ؟

3) انه سيكون من الصعب معرفة ما اذا كان زفزاف، في (المراة والوردة) قد حاول تقديم تصور ما عن « الغرب ». وفي حوار أخير له أراد نفي ذلك (65) وربما كان علينا ان نبالغ في التاويل اذا شئنا القيام بتاويل سياسي لهذه الرواية القصيرة . وفي الواقع، يشعر زفزاف بحرج كبير لما قيل أو كتب عنها : ألم ترفع في وجهه اتهامات بالاستلاب والخضوع (أو التبني) للايديولوجية الاستعمارية ؟ (66) على ان الكاتب انما كان يتحدث عن اقامة « البطل » في شاطىء اسباني قريب

جدا من بلاده . لكن من المفيد أن نلاحظ أن (المرآة والوردة) لم تكن تخفى سخط زفزاف على واقع وطنه الذى يتميز بالبؤس وانعدام الحرية فهل اذا لم يقتف خطى كاتب وطنى كغلاب نحاسبه كخائن ؟

غير أننا نستطيع أن نتبين أن الرواية تحاول تقديم خطاطة لتصورين جد ذاتيين عن « أوروبا » : فى الخطاطة الاولى . هناك الغرب كعالم مسحور ورائع . عالم المغامرة والتغير وعدم الاستقرار والحرية . ان الاشياء ، هنا ، ليس لها أمكنة ثابتة (فالمكان يعنى أيضا التوقف) . البشر هم وحدهم الذين يتحركون ويتغيرون ويغيرون ذواتهم . انك « تستطيع الحصول على ورقة خبير فى السوق الاوروبية المشتركة ،وبذلك تستطيع أن تتجول فى أوروبا كلها مع ما تشاء من الجواهر والمخدرات » (67) . لكن الغرب هو أيضا عالم التسكع والبطالة والنجاح . فالاشياء تحدث بسهولة تامة ، ولا تحتاج الى أى ذكاء : «اربع سنوات لم أشتغل . كنت أكل وأشرب وأرتدى أفخر الثياب وأنكح أجمل النساء » (68) . و فى الخطاطة الثانية نجد العكس : ان التركيز على وصف الحياة اليومية للبطل يعطى الانطباع بان ثقلا ما يقع على كاهله ، وأن اللذة لا تبقى وحدها كافية . وسيكون عليه ، فيما بعد ، ان ينسى صديقته الدانماركية اذا ما أراد الشروع فى مغامرة التهريب ، او أن يتجاهلها نهائيا . ان تطور الاحداث كان يؤدى الى ركود تدريجى ، وها أن « الغرب » بعد عملية التهريب الفاشلة ينكمش ليغدو ، آخر الامر ، جزءا من الذاكرة البعيدة. لقد كانت العودة حلا لا مفر منه .

يبقى من الضرورى التنبيه الى أن هذه المواقف لا تعبر عن تطور منسجم مع حقائق التاريخ . وربما لهذا السبب ، تعرضت (الغربة) و (المراة والوردة) لنقد شديد (69) يذكرنا

اليوم ، بذلك النقد الذى تعرض له ادريس الشرايبى سنة 1957 . أن هؤلاء الكتاب كثيرا ما تكون دوافعهم ذاتية . وعلى اى حال ، فهم وحدهم مسئولون عن ذلك ، ان الامر يتعلق بروايات ، اى بابنية متخيلة ، وعلينا أن نضع هذا فى اعتبارنا، لكن يجب أن لا ننسى ان مسألة ((الغرب)) لها صلة ، أيضا ، بعنصر ايديولوجى ، وبنزاع ثقافى لا تكاد تخلو منهما الثقافات التى كانت مستعمرة وهنا لابد من النظر باهتمام الى تلك التعبيرات المتفرقة ، التى تنطوى عليها الاشكال الادبية ، والتى تدل ، بوضوح كاف ، على ان الكتاب المغاربة لا ينظرون دائما الى الغرب ككيان يتسم بالعداء . بعبارة أخرى : ان رؤيتهم له لا تاتى ، تلقائيا ، كاستجابة لموقف عام . بل ان ذاتيتهم كثيرا ما تغدو مقياسا مسلما به للحكم ، خصوصا وأنهم يتحدثون عن تجارب تخصهم . ويمكن أن نقول : أن بن جلون ، والعروى وزفزاف قد نظروا الى الغرب ، على التوالى : كمكان للتعلم ، ومطمح للتغيير ، وميدان لممارسة الحرية . فهل كانوا بذلك يستجيبون لوعى شعوبهم ؟

البحث عن الكتابة

من السهل أن نلاحظ أن الرواية المغربية المكتوبة بالعربية تفضل السرد الواقعى . وهى لذلك تبدو محافظة ، وأحيانا ، غير أصيلة : ان جميع العناصر التى يمكن أن تساهم فى الإطاحة بهذا البناء ((التشبيه بالواقع)) يتم ابعادها . لكن الواقعية لا تتعلق فقط بالتخيل الروائى وانما تتجاوزه الى مستوى الكتابة والاساليب المستعملة بها . فتحت الالفاظ ، يمكن تحسس عالم قائم بذاته ، لكنه متغير : عند غلاب ، تتراوح الكتابة بين الوصف الشديد الدقة ، الذى يعبر عن مزاج فردى ، والوصف العام الذى يهتم بملاحقة التحولات العنيفة على حساب ما هو يومى . أما ربيع مبارك فهو أكثر واقعية

من غلاب لأنه اقل التزاما منه بالتاريخ . وعلى مستوى الكتابة ، نستطيع أن نلاحظ أن ما هو « روائي » يصبح معادلا لما هو تاريخي . أن ربيع يقود السرد بتواضع كبير ، وبدون انفعال ، ومع انه يستعمل ضمير الغائب (وهو الاسلوب — الفخ الذى ينصبه الروائي للقارىء الساذج) الا أنه لا يتحرك بعيدا عن الشخصية التى قرر أن يبنى الاحداث من « وجهة نظرها » .
لكن حياده أثناء الكتابة يحرمه من فرصة خلق كتابة خاصة به ، تدخل مع الواقع فى علاقة صياغة ، ومع ان زفزاف كان يضع فى مقدمه أهدافه « الابتعاد عن أسلوب الحكاية العادية ، التى ماتزال الرواية مشدودة اليها » (70) الا ان (المرأة والوردة) لا تكشف عن أى محاولة للابتعاد : ان زفزاف يقتب الصفحة الى الواقعية الفرنسية التى عرفت فى فترة الخمسينات والتى تركز الى وصف مسئم يتم فيه تناول الجزئيات باهتمام كبير .
لكن قيمة زفزاف الحقيقية انما يمكن العثور عليها فى جرأته : انه يمارس نسبيا ، على مستوى الكتابة ، ما يسميه الخطيبى « النقد الثيولوجي » . وربما كان بامكاننا أن نتساءل ما اذا كان من الضرورى تقديم نوم للاخرين على أنهم قاموا باخفاء « عصابهم » ؟ . ويبتعد المروى عن الوقوع فى أسر النموذجي والعادى فى آن واحد : انه ، فى الواقع ، كان يخلق كتابة خاصة لاتزال جديدة الى اليوم ، بالنسبة للرواية المغربية ، كتابة شفافة ، ركيكة ، لكن عمقها معتم . غير ان صعوبة فهم عمقها تتعلق بطريقة السرد . فالغربة هى أيضا ، « طريقة سرد » يقوم بها رجل يحسن نسيان الملاقات الزمنية والمكانية، ويدفع القارىء الى ممارسة القراءة بواسطة التركيب والتاويل .
ونستطيع أن نظن ان قارىء 1958 لم يكن بامكانه قبول رواية لاتكشف له عن اسرار كتابتها ، ولا توهمه فى ذات الوقت ، بانه لا اسرار لها البتة .

ويبدو ان رواية (زمن بين الولادة والحلم) ارادت ان تذهب ابعد من ذلك : ففي تونس الذى يظهر الروائى المغربى ارتباطه بشكل الرواية الواقعية القائمة على قواعد التخيل الممكنة ، ينجه احمد المدينى بعمله الروائى الى ارباك تلك الخطى التى لم يكمل بناؤها بعد . وهكذا وظف كتابته لخدمة تاملات نظرية فى صياغة الرواية لا تزال فى طور التجريب حتى بالنسبة لبلدان الاوروبية الاكثر تقدما . ويمكن القول أن المدينى يعبر عن تلك العلاقة المتوترة فيما بين المثقف الجامعى والمبدع الذى لا زالت كتابته مجرد مشروع . لكنه ، مع ذلك ، يتوفر على دلالة الرغبة فى تجاوز الابنية المتخيلة القارة ، وربما كان يعتقد أن استبدال صفة التخيل ، بخلق معادل كلامى أمر ضرورى فى الوقت الراهن . لكن يبدو أنه من البديهى التساؤل : كيف يمكن التعبير عن ((نظام الاشياء)) ، بواسطة (فوضى الكتابة)) . وانه لامر دال ذلك الصمت المطبق الذى صادف ظهور الرواية . غير أن الروائى يستطيع أن يعتبر ذلك ظاهرة مشجعة : أليست تلك وضعية كل (كتابة جديدة)) ؟

على أن الامر لا يتعلق بكتابة جديدة فحسب . وربما أمكن القول ان كل الروائيين الذين تحدثنا عنهم كانوا يشعرون ، بدرجه اكبر او أقل ، بانهم يقدمون اسهاما منفردا . غير أن النتيجة التى تحدث لم تكن دائما بقدر طموحاتهم . واذا استثنينا غلاب (الذى يعتقد بانه يقوم بدور رسولى على مستوى الثقافة) ، والحبابى ، فان باقى الروائيين لا يرضون تماما عن انتاجهم . ولاشك أنهم شعروا ، خلال ممارستهم للكتابة ، بان شيئا ما يقف حيال رغبتهم : شىء مبهم لكنه حاضر بتناقضه . واذا امكننا أن نسترجع مجموعة التساؤلات التى طرحت خلال هذا العرض فانه يبدو من البديهى القول بان الرغبة الروائية لاولئك الكتاب كانت تصطدم دائما بالدور المنتظر منهم كـ

((مثقفين)) فى بلد نامى ، اى كاشخاص ايجابيين . وهكذا كانت حريتهم فى الكتابة تغدو امرا اشبه بالمستحيل . اما اذا فضل الكاتب استعمال جراته فان ((الراى العام)) (وهو حس اخلاقى يرتدى اثوابا سياسية مؤقتة) يكون له بالمرصاد : حدث هذا سنة 1954 بالنسبة لادريس الشرايبى (71) كما حدث بالنسبة لزفزاف و العروى اللذين لم ير فيهما الحديث النقدى سوى داعيين لثقافة مستلبة . لكن ، خلال هذا النقاش ، كانت تضيع فرص ثمينة للبحث فى ملامح الرغبة الروائية عند هؤلاء الكتاب ، هذا العمل الذى لازال مؤجلا الى الآن .

ولقد حاولنا خلال الصفحات الماضية ، وبكثير من السرعة أن نتبين بعض ملامح هذه الرغبة ، وربما أمكننا أن نلاحظ ايضا تنقضاتها . وخلال ذلك بدا الروائى المغربى شخصا عنيدا مرتبك الكتابة : فهو من جهة يريد ان يعترف المجتمع بجدوى عمله ، ومن جهة أخرى يدافع عن كتابته كوجهة نظر خاصة . لكن سيكون عليه دائما ان يقف عند حدود ((تلك الواقعية اللقيطة)) ليبرهن بذلك على ان ما يكتبه لا يخصه وحده فى نهاية الامر . وفى هذا الصدد نتذكر غلاب كرجل يكبت رغبته الروائية لصالح افكاره السياسية أو الاخلاقية ، اما الحبابى فاستطاع ، فى عالم مفرغ من الحس الروائى ، ان يصوغ حديثا فجا عن المبادىء التى ربما كان يؤمن بها . وفى مقابل ذلك ابرز كل من بن جلون والعروى وربيع مبارك وزفزاف ملامح تلك الرغبة الروائية فى اشكال متميزة : هكذا عبرت كتابة عبد المجيد بن جلون الساخرة عن مازق الروائى الذى يريد ان يدخل حديثه الشخصى ، المختلف، ضمن نظام الاشياء . وقدم العروى ، فى تاريخ مبكر ، نموذجا استثنائيا عن رغبته الروائية تجلى فى استعمال اسلوب شخصى يتفادى الواقعية المدرسية ويدخل فى حسابه عناصر البناء الكلامى

بالاضافة الى استعمال الحلم . اما ربيع مبارك فتاتى بعض عناصر بنائه الروائى كما لو كانت ردا على الايجابيه المفرطة التى تظهر عند غلاب خصوصا فيما يتعلق بمفهوم الشخصية الروائية ويقتحم زفزاف ، عبر طاقته الحكائية ، فرتش المسلمات الفجة : ان انتهاك هذه المسلمات بواسطة الحديث الروائى يغدو امرا ممكنا لكنه يثير نزاعا محرجا لدى النيات الحسنة ، هذا النزاع الذى يصبح فى نهاية الامر حديثا احاديا مصلتا على حرية التخيل ان هذه الرغبات المتباينة ، والعميقة ، التى تبرز هنا وهناك فى شكل تجاوز او ارتباك هى ما يعطى لاولئك الكتاب قيمتهم الحقيقية ، تلك القيمة الصعبة التى امكن انجازها بفضل ارادتهم، بفضل ذلك العالم المتخيل الذى صاغته كتابتهم « كما لو كان » حقيقيا .

23 يونيو 1976

هوامش :

1) ان النسبة الغالبة فيهم لم تكتب اكثر من روايتين .
2) محمد برادة : الرواية المغربية (العلم الثقافى 2 / 5 1969) . وأيضا : الاسس النظرية ـ للرواية المغربية . الرواية المغربية . الط . العربية « دفتار المركز الجامعى للبحث العلمى » ص (141)
3) الرواية المغربية . الط . العربية . ص 35 .
4) نفس المصدر ص 75 .
5) الرواية المغربية ـ ص 29 .
6) أعيدت كتابتها سنة 1961 جزئيا .
7) عبد الكريم غلاب : مع الادب والادباء . دار الكتاب (الدار البيضاء) 1974 . ص 150 .
8) الرواية المغربية (الط . العربية) ص 121 .
9) عبد المجيد بن جلون : فى الطفولة . ط مكتبة المعارف . ص 108
10) نفس المصدر . ص 36 .
11) نفس المصدر . ص 116
12) ص 117 .
13) ص 119 .

14) ص 124 .
15) ص 124 .
16) ص 125 .
17) ص 126 .
18) ص 127 .
19) ص 128 .
20) عبد الكريم غلاب : دفنا الماضي . ص 6 .
21) احمد اليابوري : فن القصة في المغرب (من 1914 — 1966) ص 177
22) دفنا الماضي . ص 10 .
23) نفس المصدر ص 11 .
24) نفس المصدر ص 11 .
25) نفس المصدر . ص 67 . 68 . 120 .
26) نفس المصدر . من صفحه 56 الى 70 .
27) الروايه المغربيه — ص 35 .
28) نفس المصدر — ص 121 .
29) تنبغى الاشارة الى ان هذا التصنيف لا صلة له بنمط « الرواية التربوية » عند لوكاتش . أنظر : 93 —
Pour une sociologie du roman - L. Goldman Coll. Idées, Galimard
30) مادلين ، صديقة عبد الرحمان التى يتم الحديث عنها في فصل واحد لا غير . أنظر : دفنا الماضي — من صفحة 249 الى 256 .
31) مع الادب والادباء : ص 96 .
32) لقد لاحظ مؤرخ مغربي هو (محمد زنيبر) ، هذا الفهم الاخلاقى عند غلاب للحركة الوطنية : أنظر ، (المحرر الثقافى) — عدد 656 ، 20 يونيو 1976) .
33) لقد عبر بارث Barthes) من هذا المعنى في Mythodologies ص 41
34) جيل الظمـأ ص 13 .
35) نفس المصدر ص 106 .
36) نفس المصدر ص 223 .
37) نشرت الرواية سنة 1966 وهى السنة الثانية في فترة الاستثناء التى كرست انتكاسا للحركة الوطنية .
38) يقول أحمد اليابوري في طروحته عن (فن القصة في المغرب) : ان الحبابى كتب جيل الظمأ سنة 1958 . ونشرت سنة 1967 .
39) نظرية الادب : (ويليك ، وارين) (الط. العربية) ص 292
40) الغربة — ص 140 .
41) نفس المصدر — ص 109 .
42) نفس المصدر — 135 .

43) نفس المصدر — ص 111
44) نفس المصدر — ص 8
45) نفس المصدر — ص 21
46) نفس المصدر — ص 140 .
47) الطيبون — ص 44 .
48) نفس المصدر — ص 60
49) نفس المصدر — ص 113 .
50) نفس المصدر — ص 83 .
51) نفس المصدر — ص 187 .
52) مشكل تفويت الارض عند ربيع ، ومشاكل بداية الاستقلال عند العروى
53) دفنا الماضي . ص 249 الى 256 .
54) جولة حول حانات البحر الابيض المتوسط . الشركة القومية للنشر والتوزيع (تونس) 1962 . وينبغي التنبيه الى ان الرواية كتبت سنة 1935 .
55) عصفور من الشرق ، سلسلة اقرأ 389 ، دار المعارف .
56) موسم الهجرة الى الشمال . دار العودة — بيروت .
57) في الطفولة . ص 97
58) نفس المصدر — 98
59) نفس المصدر — ص 98
60) نفس المصدر — ص 36
61) الغربة — ص 14
62) نفس المصدر — ص 44
63) نفس المصدر — ص 77 .
64) نفس المصدر — ص 80 .
65) (الاقلام) العراقية . عدد 9 . يونيو 1976 .
66) (أقلام) المغربية . عدد 4 . نوفمبر 1972 .
67) المرأة والوردة . الدار المتحدة للنشر — بيروت . ص 10 .
68) نفس المصدر — ص 11 .
69) أنظر المحرر الثقافي عدد 219 . وعدد 486 .
70) المحرر . عدد 173 .
71) أنظر (أنفاس) عدد 5 (سنة 1967)

بيبليوغرافيا موجزة للرواية المغربية المكتوبة بالعربية

الـــروايـــة الكـــاتب دار النشر تـــاريـــخ الطبعة الاولـــى

فى الطفولة ــ عبد المجيد بن جلون ــ مطبعة الاطلس ــ 1957

امطار الرحمة ــ عبد الرحمان المرينى ــ مطبعة شمال افريقيا 1965

سبعة أبواب ــ عبد الكريم غلاب ــ دار المعــارف (القاهرة) 1965

بوتقة الحياة ــ البكرى أحمد السباعى ــ مطبعة النجاح ــ 1966

دفنا الماضى ــ عبد الكريم غلاب ــ المكتب التجارى (بيروت) 1966

جيل الظمأ ــ م.ع. الحبابى ــ المكتبة المصرية (بيروت) ــ 1967

غدا تتبدل الارض ــ فاطمة الراوى ــ أمبريجيما ــ 1967

المراة والوردة ــ محمد زفزاف ــ الدار المتحدة للنشر ــ 1970 (بيـــروت)

الغربة ــ عبد الله العروى ــ دار النشر المغربية ــ 1971

المعلم على ــ عبد الكريم غلاب ــ المكتب التجارى (بيروت) 1971

الطيبـــون ــ ربيـــع مبـــارك ــ دار الكتـــاب ــ 1972

المخاض ــ البكرى أحمد السباعى ــ دار الكتـــاب ــ 1972

شقراء الريف ــ عبد العزيز بنعبد الله ــ دار النجاح (بيروت) 1973

اكسير الحياة ــ م.ع. الحبابى ــ دار الهلال (القاهرة) 1974

زمن بين الولادة والحلم ــ أحمد المدينى ــ دار النشر المغربية 76

المغتربون ــ محمد الاحسايني ــ دار النشر المغربية ــ 1974

أرصفة وجدران ــ محمد زفزاف ــ دار الحرية للطباعة (بغداد) 74

رفقة السلاح والقمر ــ ربيع مبارك ــ دار الثقافة ــ 1976

سوسيولوجيا الأدب عند لوسيان غولدمان

عبد السلام بنعبد العالى

سجل (أ. ميمى) حوالى 1960 تخلف سوسيولوجيا الاداب حيث كتب « أن هذا الفرع من السوسيولوجيا ما زال لم يؤسس بعد » (1) صحيح أن كتابات كتلك التى قامت بها (مدام دو ستايل) أو (تين) أو أشارات بعض علماء الاجتماع كدوركهايم و (موس) لعلاقة الاعمال الادبية بالواقع الاجتماعى يمكن أن تعتبر ممهدات لهذا الفرع من علم الاجتماع . الا ان قيام سوسيولوجيا حقيقية للاداب لا يتعدى الاربعين سنة .

فربما كان فى استطاعتنا ان نقول دون كبير مبالغة ، ان الحديث عن سوسيولوجيا الاداب عند غولدمان معناه الحديث عن نشأة هذا الفرع من علم الاجتماع ، لكن هذا لا يعنى قط اهمال تلك الارهاصات التى كانت تبشر بميلاد هذه السوسيولوجيا ، فغولدمان نفسه يرجعنا فى كثير من الاحيان الى

(1) in traité de sociologie T II p. 299. PUF 1960

الاعمال التى قامت بها جماعة فرانكفورت منضوية حول (لوكاتش) فهو يسجل ان فضل لوكاتش على هذا الفرع من علم الاجتماع لا يمكن ان ينكر ، اذ انه هو الذى ربط هذه السوسيولوجيا بعلم الجمال فى اشكاله المختلفة سواء عند كنط او هيجل او ماركس. كما أن غولدمان يورد بعض الرواد أمثال (بينيشو) فى كتابه « اخلاق القرن الكبير » (1948) حيث يحاول هذا المؤلف ان يربط اعمال كورنى وراسين وموليير بمختلف الطبقات الاجتماعية المجتمع الفرنسى خلال القرن السابع عشر ، وامثال (هاوسر) فى كتابه « التاريخ الاجتماعي للفن والاداب » (1953) . وبالرغم من هذا فانه يتعذر علينا ان نتحدث ، بصدد هؤلاء ، عن ارساء فعلى لسوسيولوجيا الاداب وعن طريقة جديدة لنقد الانتاج الادبى وتاويله بل وتفسيره كذلك .

والواقع ان الطابع المثالى الذى ساد الفكر الغربى خلال قرون ليست بالقصيرة ، كان يحول دون ربط الاعمال الثقافية بصفة عامة ، والانتاج الادبى على الخصوص ، بالواقع المادى الذى يترعرع فيه والظروف الاجتماعية التى ينمو فى حضنها . ان العمل الادبى، بما هو عمل فنى ، كان يبدو ، بالدرجة الاولى، مجالا لابداع الخيال أكثر منه انعكاسا لواقع .

ثم ان اصحاب النقد الادبى ، تعودوا ان ينظروا الى العمل الادبى من حيث هو انتاج لفرد بعينه ، فلم يكن يسيرا على سوسيولوجيا الاداب ان تفرض نظرة تخالف باقى أنواع النقد الادبى ، وان تنطلق من كون الابداع الفنى بصفة عامة ، والادبى على الخصوص تعبيرا عن وعى جمعى ، وعى لا يتميز المبدع الا من حيث ان مساهمته فيه تكون أقوى من مساهمات الاخرين. فهاهنا ينظر الى العمل الادبى من حيث هو انتاج المجتمع بقدر ما هو انتاج فردى . ويكون السؤال حينئذ عن الروابط التى توجد بين محتوى العمل الادبى ومحتوى الوعى الجمعى ، او على

الاقل ، عن العلاقة التى تربط بين ذلك العمل وبين البنيــة الذهنيــة لعصر او جماعــة.

وقبل أن نستعرض راى غولدمان بصــدد طبيعة تلــك العلاقة علينا أن نشير الى بعض الأبحاث التى تدعى ، هـــى الاخرى ، أنها تدرس الاعمال الادبية دراسة سوسيولوجية . فمن المعلوم أن هنك مجموعة من الابحاث تهتم بنشر الاعمـال الادبية وكيفية توزيعها ومدى استهلاكها واقبال الجمهور عليها. تلك هى الابحاث التى يقوم بها الاستاذ (ر. ايسكاربى) فـى فرنسا مثلا ولسنا فى حاجة الى أن نلح على أن العمل الادبى بما هو كذلك ، يظل فى مثل هاته الابحاث عملا هامشيا وأن الدراســة لا تنصب هنا على الانتاج الادبى بقدر ما تهتم بالعلاقة التى تربط الكتب بالاسواق والمستهلكين .

غير ان هناك تيارا آخر لا يبدو أنه يهمل العمل الادبــى وانه بالتالى ، كان سباقا لارساء قواعد سوسيولوجية صحيحة للاداب . ذلك هو التيار الذى يمتد من (مدام دوستايل) و (تين) و (مهرنغ) . يحاول هؤلاء أن يبحثوا عن العلاقة التى تربــط (محتوى) الوعى الجمعى للمجتمع فى كليته أو لبعض الفئــات الاجتماعية المعينة ، الى محتوى الاعمال الادبيــة . يعتبــر (غولدمان) أن مثل هاته الابحاث ، تظل ، هى الاخــرى محدودة الاهمية كما تبقى عاجزة عن فهم طبيعة الاعمال الادبية . ذلك أن العمل الادبى ان كان لا يعمل الا على عكس محتوى الوعــى الجمعى فهو لن يتوفر على أية قيمة جمالية .

ضد كل سوسيولوجية للاداب تجعل من الابــداع الادبــى ظاهرة اقتصادية او انعكاسا لوعى جمعى حقيقــى تقــوم السوسيولوجية التى ارسى قواعدها لوكاش وحاول غولدمان ان يعطيها صياغتها النظرية وتطبيقاتها العملية . وسنحاول فيمـا

يلى ان نعرض لاهم المفاهيم الاساسية لهاته السوسيولوجيـــة البنيوية التكوينية وللمواقف آلتى تميزها عن كل سوسيولوجيـــة ميكانيكية . وسنجمل تلك المفاهيم فى خمس نقط أساسيـــة :

1 ــ من انعكاس المحتوى الى التناظر البنيوى : مفهوم البنيـــة الدالـــة .

2 ــ « مفهوم النظرة الى العالم » واهميته المنهجيه .

3 ــ انتقاد التفسيرات السيكولوجية .

4 ــ الوعى والواقع الاجتماعى .

5 ــ مفهوم الوعى الممكـــن .

1 ــ من انعكاس المحتوى الى التناظر البنيوى :مفهـــوم البنيـــة الدَالـــة :

يقول غولدمان : « ان المفهوم البنيوى التكوينى الذى يعتبر لوكاتش مبدعه بلا منازع ، يقتضى تحولا جذريا للمناهج التـى اتبعت فى سوسيولوجيا الاداب . فجميع الاعمـــال السابقة ــ ومعظم الاعمال الجامعية التى عرفت الوجود ــ كانت وما تزال تنصب على محتوى الاعمال الادبية وعلى العلاقة التى تربط هذا المحتوى بمضمون الوعى الجمعى ، وأقصد طرق تفكير النـــاس وسلوكهم فى الحياة اليومية . فمثل هذا النوع من الدراسات، من شانه أن يفتت وحده العمل اذا ما هو قصر اهتمامه على ما ليس فى العمل الادبى الا تكرارا للواقع الاختيارى للحياة اليومية » (2) فالعلاقة التى تربط « الفكر الجماعى بإبداعات الافراد » ســـواء اكانت ادبية او فلسفية او لاهوتية ، لا تقوم فى تطابق بيـــــن المحتويات والمضامين ، بل فى انسجام وتناسق بين البنيات وذلك

(2) L. Goldmann : La sociologie de la littérature in Revue intrnationale des sciences sociales. UNESCO Vol. 19. N° 4 1967.

الانسجام يمكن أن يجد تعبيره عن طريق مضامين خيالية تخالف أشد الخلاف المحتوى الواقعى الحقيقى للوعى الجمعى » (3)

ان أهمية علم الجمال الجدلى تكمن فى أنه توجه باهتمامه منذ البداية الى هاته البنية المعبرة والى الوحدة التى توجد بين العمل الادبى ودلالته . فمع ظهور كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » لم يعد ينظر الى العمل الادبى كانعكاس لوعى جماعى ولم تعد العلاقة الاساسية توجد فى مستوى المضامين بل أصبح يبحث عنها فى مستوى التوافق البنيوى . فاكثر الاعمال تباينا واختلافا يمكن أن يتوفر على بنية واحدة توافق النزعات التى تعاصر الوعى الجمعى لهاته الطبقة او تلك ، أو لهذا المجموع أو ذاك. «فالفرضية الاساسية للبنيوية التكوينية تقتضى ان كل ظاهرة تدخل تحت عدد من البنيات ذات مستويات مختلفة . ولكى استخدم عبارة أفضلها ، أن كل ظاهرة تدخل فى كليات متناسقة وهى تتخذ ، داخل كل من هاته البنيات دلالة خاصة (...)

ان كل عمل ثقافى هو فى ذات الوقت ظاهرة فردية واجتماعية ، وهو يدخل فى بنيتين تتكونان من شخص المبدع ومن الجماعة التى نشأت فى حضنها المقولات الذهنية التى تحدد ذلك الشخص » (4) .

يشكل مفهوم البنية الدالة هذا احدى الركائز الاساسية التى تقوم عليها سوسيولوجية الاداب عند (غولدمان). ذلك ان هذا المفهوم يلعب فى ذات الوقت دورا نظريا ودورا معياريا « من حيث هو من جهة الاداة الاساسية التى تمكننا من فهم طبيعة الاعمال الابداعية ودلالتها ، ومن جهة اخرى فهو المعيار الذى يسمح لنا بأن نحكم على قيمتها الفلسفية او الادبية او الجمالية . فالعمل الابداعى يكون ذا صلاحية فلسفية أو ادبية او

---

(3) Pour une sociologie du roman p. 41.. Idées - Gallimard. Pris
(4) Marxisme et sciences humaines p. 26. Idées. Gallimard 1970

جمالية بمقدار ما يعبر عن رؤية منسجمة عن العالم اما على مستوى المفاهيم أو على مستوى الصور الكلامية أو الحسية واننا سنتمكن من فهم تلك الاعمال وتفسيرها تفسيرا موضوعيا بمقدار ما نستطيع ان نبرز الرؤية التى تعبر هى عنها » (5) . ذلك ان الفنان لاينسج الواقع ولا يعلم الحقائق «انه يخلق كائنات وأشياء تشكل فيما بينها عالما موحدا . وبالطبع فان هذا العالم يجب أن يتمتع بنوع من الانسجام والمنطق الداخلى » (6) .

لقد أظهر لوكاتش منذ سنة 1923 أن العمل الفنى يشكل عالما خياليا موحدا وأن كل دراسة تحاول ان تهتم بجانب معين منه دون اعتباره فى وحدته وكليته ، تظل بعيدة عن مجال الدراسات الجمالية الحقيقية . فلكى يفهم الباحث العمل الذى ينوى دراسته « عليه أولا أن يكشف عن بنية فى امكانها أن تدل على النص فى كليته وذلك باتباع قاعدة اساسية وهى أن الباحث مرغم على أن ياخذ بعين الاعتبار النص بكامله ولا يضيف اليه اى شىء من عنديته » (7) فالانسجام الداخلى الذى يربط بين اجزاء العمل الادبى يجعلنا عاجزين عن فهم اى جزء ما لم نربطه بالاجزاء الاخرى وما لم نعتبره انطلاقا من بنية الكل . «فالاعمال الفلسفية والادبية والفنية التى تستحق هذا الاسم تتميز بوجود انسجام داخلى بين اجزائها وبمجموعة من العلاقات الضرورية التى تربط مختلف العناصر المكونة لها أو تربط مضمون تلك الاعمال بشكلها . وهذا ما يجعل من المستحيل قيام دراسات قيمة لبعض عناصر العمل الادبى خارجا عن المجموع الذى تشكل هى جزءا منه والذى يحدد هو وحده طبيعتها ودلالتها الموضوعية » (8) .

---

(5) Recherches dialectiques. p. 109 Gallimard 1959.
(6) ibid. p. 55
(7) «La sociologie de la littéarture» in Revue...
(8) Recherches. op. cité. p. 107

2 ــ مفهوم « النظرة الى العالم » وقيمته المنهجية :

يقول (غولدمان) : ان البنية الداخلية للاعمال الفلسفية أو الادبية أو البنية العظمى صادرة عن كون هاته الاعمال تعبر، في مستوى يتمتع بانسجام كبير ، عن مواقف كلية يتخذها الانسان أمام المشاكل الاساسية التى تطرحها العلاقات فيما بين البشر والعلاقات بين هؤلاء وبين الطبيعة » (9) فالفلسفة والفن كما قال لوكاتش « في كتاب صدر سنة 1910 يكونان اشكالا » (10) أى تعابير عن بعض النظرات الى العالم . فـ « ليست مؤلفات أى مفكر الا تعبيرا عن نظرة موحدة وكلية الى العالم واننا لا نكون قد فهمنا تلك المؤلفات حق الفهم ما لم نتمكن من ادراك بنية المجموع وفهم كل مؤلف باعتباره جزءا من كل » (11).

يشكل مفهوم « النظرة الى العالم » عند البنيوية التكوينية أداة منهجية تعادل في أهميتها مفهوم البنية الدالة . فبالنسبة لهاته البنيوية « ان العنصر الاساسي في دراسة الابداع الادبي يتجلى في كون الاداب والفلسفة ، هي ، في مستويات مختلفة ، تعبيرات عن نظرة الى العالم » (12) والنظرة الى العالم هي تلك الرؤية الموحدة والمتناسقة حول علاقات الانسان بالبشر وبالعالم . الا أن هاته الرؤية لا تعطى في المستوى الاختباري ولا تطفو على السطح بل انها من وضع العالم الاجتماعي . انها اذن اداة منهجية وليست معطى من معطيات التجربة . ثم ان النظرات الى العالم ليست ترجع الى أفراد معينين وانما هي تتوقف في ظهورها واشكالها على ظروف تتجاوز الافراد وتمتد في التاريخ والمجتمع . فهي « ليست وقائع فردية بل انها ظواهر اجتماعية . انها رؤية الى العالم منسجمة

(9) ibid p. 108
(10) ibid p. 33
(11) ibidem.
(12) ibid p. 46

متناسقة ، هذا فى حين أن فكـــر الافراد قلما يكون كذلك » (13) ذلك ما يجعل النظرات الى العالم متوقفة فى ظهورها وتحولهـــا على الظروف الاجتماعية « فالنظرات الجديدة الى العالم لا تظهر بصفة مباغتة بفعل حدس عبقرى من اتعباقرة (...) فالامـــــر يستلزم عددا كبيرا من الجهود الموحدة فى نفس الاتجاه والتـــى غالبا ما تمتد عبر أجيال عديدة ، وبعبارة موجزة فمن الضرورى أن يتوفر تيار اجتماعى » (14)

يصوغ عالم الاجتماع نماذج معينة يفسر عن طريقهـــــا الاعمال الفكرية والادبية ، فهاته النماذج اذن لا تعطى فى التجربة لكن هذا لا يعنى أن الدارس للاعمال الادبية يضع النماذج التى يحلو له وضعها دون مراعاة المعطيات التاريخية ، فان لم تكـــن النظرات من معطيات التجربة فهى ليست مع ذلك من صنـــــع عالم الاجتماع ، انها وليدة تيار اجتماعى « وأن حضور هاتـــه النظرة الى العالم او تلك فى فترات بعينها من التاريخ يكــــون نتيجة للوضع المبانى الذى توجد عليه مختلف المجموعــــــات البشرية خلال التاريخ » (15) لذا كان عدد النظرات محصورا محدودا ، فهناك « عدد محدود من النظرات النمنجية الى العالم: هناك العقلانية والتجريبية والحلولية والصوفية الحدسيــــــة والفردانية الادارية والرؤية الماساوية والموقف الجدلى ســـواء أكان مثاليا أو ماديا الخ » (16)

هاهنا أيضا تبدو مساهمة لوكاتش كبيرة الاهمية فهو « قد زاد النماذج الفلسفية والادبية غنى وثراء وذلك :

لكونه كشف عن (نماذج) لم تكن ظاهرة جلية فيما قبـــــل

(13) ibidem
(14) ibid p. 31
(15) ibid p. 108
(16) ibid p. 41

كالرؤية المأساوية للعالم ، رؤية ((المحاولات الادبية)) رؤيـــة الرواية وهكذا فقد زودنا بوسائل ثمينة لفهم مفكريـــن امثـــال مونتينى وكنط وباسكال .

ـ ولكونه حلل عناصر لم تكن ملاحظة فيما قبل أتم الملاحظة فى النظرات الى العالم التى كانتمعروفة حتى ذلك الوقت كما هو الشان مثلا عندما بين الروابط التى توجد بين بعض النقـــط الاساسية فى العقلانية والتجريبية اللتين كانتا تظهران متقابلتـــين أتـــم المقابلـــة .

ـ ثـــم اخيرا لكونه بين أن مشكل التواصل وعلاقـــات الانسان مع الاخرين يشكل النقطة الاساسية التى تصدر عنهـــا باقى العناصر المكونة لمعظم النظرات ((النموذجية)) الـــى العالم)) (14) .

وفيما يتعلق بالاعمال الادبية بصفة خاصة تتجلى اهميـــة لوكاتش فى أنه وضع نموذجا للرواية (فانطلاقا من العلاقة التىتربط البطل بالعالم ، يميز لوكاتش بين ثلاثة نماذج صورية للروايـــة الغربية خلال القرن (19)، بالاضافة الى النموذج الرابع الذى كان يشكل آنئذ تحولا للنوع الروائى نحو اشكال جديدة كانـــت تقتضى تحليلا من نوع آخر . هذه الامكانية الرابعة كانت تنحـــو نحو الشكل الملحمى . اما فيما يتعلق بالنماذج الثلاثة الروايـــة والتى ينصب عليها تحليل لوكاتش فهى :

أ ـ رواية ((المثل الاعلى المجرد)) التى تتميز بفعاليـــة البطل وبوعيه الضيق أمام تعقيد العالم (تمثل هذا النمـــوذج روايات (دونكيخوت) لسيرفانطيـــس ، والاحمـــر والاســـود استاندال) .

(17) ibid pp. 41-2

ب ـ الرواية السيكولوجية الموجهة نحو التحليل الداخلي والتي تتميز بسلبية البطل ووعيه اليقظ الذي يتجاوز في اتساعه ما يحمله له عالم الاعراف والعادات (تمثله رواية التربيـــة العاطفيـــة) .

جـ ـ واخيرا الرواية التربوية التي تنتهي بأن تفرض على نفسها حدوداً والتي لا تخلد الى تقبل عالم الأعراف والعـــادات والتخلي عن سلم القيم بالرغم من كونها تمتنع عن البحث الاشكالي (يمثل هذا النوع غوته في ولهلم مايستر) » (18) .

ليس وضع النماذج غاية في حد ذاته مثلما أن الربط بـــين العناصر الداخلية للعمل الادبي ليس الا وسيلة نربط اعمـــق فبعد أن يحاول عالم الاجتماع ان يفهم « العمل في ذاته ودلالتـــه الخاصة بعد أن يحكم عليه في مستواه الجمالي بما هو عالــــم مشخص من الكائنات والاشياء التي أبدعها الكاتب الذي يحدثنا من خلال ذلك العمل (19) وبعد أن يصوغ نماذج النظرات الى العالم ، يبقى عليه ان يفهم هذا العمل ويفسره .

وقد قلنا ان سوسيولوجيا الادب تعتبر المبدع الحقيقي هو المجتمع ولا تكتفي بالوقوف عند افراد معينين ، كما قلنا انهـــا تعارض بذلك كثيرا من انواع النقد الادبي أو التاريخ الادبـــي التقليدي . لكن هذا لا يعني مطلقا أن الإبداعات الادبية لا تتاثر بحياة مبدعيها ومزاجهم الشخصي . ونحن نعلم أن تراثا هاما من النقد الادبي قد ظل لمدة طويلة مقتصرا ، في دراسته للاعمـــال الادبية ، على التفسيرات السيكولوجية وعلى ارجاع الابداعات لعوامل فردية شخصية . والظاهر ان لامحيد لنا عن مثل تلـــك التفسيرات ان نحن اردنا فهم تلك الاعمال . ذلك هو الســـؤال

(18) Pour une sociologie de roman. op. cité pp. 24-25-6
(19) Recherches p. 48

الذى يطرحه غولدمان على نفسه والذى سنحاول الاجابة عنه في هذا القسم الثالث .

3 ــ انتقاد التفسيرات السيكولوجية :

« يمكن أن يطرح علينا السؤال: لماذا نربط العمل الادبى بالدرجة الاولى بالجماعة ولا نرجعه الى الفرد الذى ابدعه خصوصا وانه اذا كانت الرواية الجدلية لا تنكر أهمية الفرد فان المواقف العقلانية والتجريبية والفينمينولوجية لا تنفى هى الاخرى واقع الوسط الاجتماعى شريطة أن نرى فيه مجرد انشراط خارجى ؟ » (20) يجيب غولدمان عن هذا السؤال بشكل حاسم: « ان نحن اعتبرنا ان الفرد هو الذات المبدعة ، فان أهم جزء من العمل المدروس يظل عرضيا » (21) « فيمكننا مثلا ان نربط مسرح « كلايست » بوضعه الاسروى وعلاقاته مع والده واخته، كما يمكننا ان نربطه بالصراع الذى كان دائرا فى المانيا وقتئذ بين الايديولوجية القائلة بالحرية وبين المنادية بالسلطة . واذا ما ابعدنا كل اعتبار حول الصلاحية الفعلية لهذا التحليل أو ذاك فانه يظهر لنا جليا من الناحية المنهجية ان التحليل الاول ليس فى امكانه أن يبرز بوضوح الا الدلالة الشخصية والفردية للابداع الفنى بالنسبة للفرد (كلايست) ، وأنها دلالة لا تخلو من أهمية فى حد ذاتها بالنسبة لعالم النفس الذى يريد أن يعرف هذا الشخص . ولكنها لا تختلف كثيراً من وجهة النظر هاته عن كثير من الوقائع التى شهدتها حياة (كلايست) والتى لا تتمتع بأية قيمة جمالية . أما التحليل الثانى فانه يهتم بالدرجة الاولى ومن الناحية المنهجية ، بالقيمة العامة ، اى القيمة الجمالية التاريخية والمجتمعية للعمل الفنى » (22) .

---

(20) Pour une sociologie de roman op. cité p. 340
(21) ibidem
(22) Marxisme et sciences humaines pp. 26-7

ذلك أن التفسيرات السيكولوجية التى تريد أن تفهم العمل الادبى بارجاعه الى الظروف الشخصية لحياة مبدعه ، تظل تفسيرات لحياة الفنان لا للعمل فى حد ذاته . انها لا تفيد سوسيولوجيا الادب وانما تفيد معرفة الاشخاص . هذا ان نحن سلمنابامكان قيام تلك التفسيرات فما بالك لو كان قيامها ذاته متعذرا صعب المنال . لذا فهناك « اعتراضات خطيرة تقوم ضد التفسيرات السيكلوجية : اولها واقلها اهمية يرجع الى ضعف معلوماتنا عن الحياة النفسية للكاتب (...) ثم ان هاته التفسيرات لم تنجح قط فى تفسير جزء هام من النص الادبى بل انها غالبا ما تقتصر على بعض العناصر الجزئية او بعض السمات المغرقة فى العمومية . واخيرا هناك اعتراض ربما كان أكثر هاتهاهمية (...) وهو أن تلك التفسيرات ، اذا ما هى استطاعت أن تفسر بعض المظاهر والميزات التى تميز العمل الادبى فغالبا ما يكون الامر متعلقا بمظاهر وسمات بعيدة عن الادب » (23) أضف الى ذلك أن التفسير السيكولوجي بطبيعته تفسير صعب يقتضى الحضور الشخصى للشخص الذى تريد فهم حياته وأعماله فـ « البنية السيكولوجية هى من التعقيد بحيث لايمكننا تحليلها على ضوء هاته المجموعة من الشهادات أو تلك . وهى مجموعة تتعلق بفرد فارق الحياة او بكاتب ليست لنا معرفة مباشرة بـه » (24) .

لكل تلك الاسباب تؤكد سوسيولوجية الادب اهميتها على حساب التحليلات التى تقف عند الافراد وحياتهم الشخصية « فالتاريخ الشخصى للكاتب لا يعد عنصرا أساسيا فى تفسير العمل الادبى ، وأن معرفة فكر الكاتب ومقاصده واهدافه ليست عنصرا أساسيا لفهم ذلك العمل » (25) لا يعنى هذا أن معرفة

(23) «La sociologie littérature» in Revue...
(24) Pour une sociologie du roman. op cité p. 341
(25) ibid p. 50

(ترجمة) الكاتب عديمة النفع خالية من كل فائدة فقد ((يكـون لرسم الحياة الشخصية للمؤلف اهمية كبرى وأن من واجـب تاريخ الادب أن يوليها اكبر العناية كي يستفى فى كل حالة خاصة، المعلومات والتفسيرات التى يمكنها أن تزوده بها . ولكن لا ينبغى عليه ان ينسى ابدا أنه عندما يتعلق الامر بتحليل اعمق ، لا تكون الحياة الشخصية الا عاملا جزئيا وثانويا (26) . ذلك ان العلاقة بين العمل الادبى وحياة الاديب لاتكون قط علاقة ضروريه . فلو أن ادباء كراسين او موليير قد تلقوا تربية مغايرة وعاشوا فـى وسط مخالف لاعطوا للمشاكل الفردية التى واجهتهم حلـولا اخرى ولالفوا كتبا مغايرة لما الفوه . ولكن العلاقه التى تربـط مسرح (راسين) بالجانسينست ونبلاء الثوب والتى تشد هزليات (موليير) الى نبلاء القصر علاقة ضرورية ، وهى التى تمكننـا من تفسير العمل الادبى وفهمه ومن التحليل الجمالى لنصوصهم الادبيـة .

علينا اذن أن نخرج عن المحددات الفردية الشخصية للعمل الادبى وأن نحاول فهمه وتفسيره بادراك العلاقة التى تربطه لا بحياة مبدعه بل بتلك النظرات الى العالم التى اثبتناها والتـى توافق ، كما سنرى ، فئات اجتماعية معينة .

ولكن اذا كانت التفسيرات السيكلوجية (العادية) عاجزة عن ان توضح لنا الابداعات الادبية ، لماذا لا نلجا الى تقنيات التحليل النفسى . صحيح أن التفسيرات السيكولوجية (العادية) تقف عند (الاحوال الشعورية الكاتب) ، والمعروف أن ((الشعور لا يشكل الا عنصرا جزئيا من السلوك البشرى وانه غالبا ما يشمل محتوى لا يطابق الطبيعة الموضوعية لذلك السلوك))(27) فلماذا

(26) Recherches op cité pp. 47-8
(27) «la sociologie littérature» in Revue

لا نلجا اذن الى كشف غياهب اللاشعور واخضاع العمل لتحليل نفســـى ؟

يعترف (غولدمـــان) أن «السوسيولوجية التكوينية تلتقـــى مع التحليل النفسى فى نقط ثلاث على الاقل :

أ ــ القول بأن كل سلوك انسانى هو جزء من بنية دالـــة واحـــدة على الاقـــل .

ب ــ لفهم هذا السلوك يجب ادخاله فى تلك البنية التـــى ينبغى على الباحث أن يكتشف عنها .

ج ــ القول بأن تلك البنية لا تفهم فهمـــا حقيقيا الا اذا ادركناها فى تكونها الفردى أو التاريخى حسب الاحوال .

وخلاصة القول أن التحليل النفسى ، مثلـــه مثـــــل السوسيولوجية التى ندعو اليها ، هو بنوية تكوينية » (28) .

لا داعى أن نلح هنا على أن الممارسة الحقيقيـــة لعمليـــة التحليل تقتضى الحضور الفعلى للمحلل أمام المحلل وبالتالـــــى فهى تتعارض مع وجود فواصل زمانية أو مكانية بـــين الدرس والمدروس . لكن الاهم من ذلك هو أن التحليل النفسى ، مثلـــه مثل اى تفسير سيكولوجى يحاول ، أن يرجع كل سلوك انسانى الى ذات فردية . هذا فى حين أن سوسيولوجية الاداب تحاول أن تبحث عن الابعاد الاجتماعية التى تحدد العمل الادبى ، ثـــم أن تفسيرات التحليل النفسى لا تمكننا الا من فهم جزء ضئيـــل من النص الادبى وليس فى امكانها ان تميز عمل عبقرى عن هذيان مختل معتـــوه .

لا مفـــر اذن عن الخروج من كل تفسير نفسانى حتـــى

(28) ibidem

وان ادعى أعتماد التحليل النفسي وربما تعلق الامر بالخروج من كل تفسير فرداني يقف عند اعتبار الاعمال الادبية من حيث هي انتاجات افراد « فكون راسين مثلا قد الف مجموعة من المسرحيات شيء كانت له دلالته بالنسبة للشخص (راسين) وتتجلى تلك الدلالة ان نحن رجعنا الى شبابه الذى قضاه فى بور رويال ، والى علاقاته التى انشأها فيما بعد مع أصحاب المسرح ومع القصر وكذا فى العلاقات التى أقامها مع الجانسيسنت ، والى عنصر آخر من حياته . لكن وجود الرؤية الماساوية قد كان من المعطيات التى انطلق منها راسين » (29) علينا اذن أن نخرج من حياة راسين لفهم أعماله كما علينا أن نربط الاعمال الادبية بالنظرات الى العالم التى اثبتناها والتى توافق كما سنرى ، طبقات اجتماعية معينة فالبنيات الذهنية تظل غامضة غير مفهومة أن لم نربطها بالظروف الاجتماعية التى تنشا فى حضنها.

4 — الوعى والواقع الاجتماعى :

« بعد أن يثبت الباحث ، مثلا ، نماذج العقلانية والرؤية الماساوية والرومانسية الحدسية ، وبعد أن يدرس بطريقة باطنية فكر ديكارت وباسكال وكنط وشلينغ ، عليه أن يتساءل عن الشروط الاجتماعية التى سمحت بازدهار تيار عقلانى فى فرنسا (ديكارت — كورينى) وبظهور نظرة ماساوية للعالم (باسكال — راسين) خلال القرن السابع عشر ، أو بنمو رؤية ماساوية فى المانيا فيما بين سنوات 1780 — 1805 (كنط ، شيلر وهولدرين) » (30).

ليس المنهج الباطنى بكاف وحده لدراسة النص الادبى . نعم ، ان الوقوف عند النص فى حد ذاته والدراسة المحايثة له أمر

(29) ibidem
(30) Recherches op. cité p. 42

ضرورى وخطوة أولى لابد منها ، ولكنها لا تغنينا عن البحث عن الشروط الاجتماعية التى ينمو العمل فى حضنها فـ « اذا لم يكن فى امكاننا أن نفسر فكرا بالرجوع الى أسسه الاجتماعية والاقتصادية قبل أن نعرفه فى كليته وفى بنيته الخاصة ، فلا يقل عن ذلك صحة ، ان البحث عن هاته الاسس الاجتماعية الاقتصادية يسمح لنا بدوره بأن نتبين تبينا أفضل ونفهم أحسن الفهم مضمون الفكر المدروس » (31) . ولكن البحث عن تلك الشروط الاجتماعية لا يعنى الرجوع الى تفسيرات ميكانيكية تعتبر الفكر صدى منفعلا يعكس الواقع فان « أشنع الاخطاء ، واكثرها ذيوعا بالرغم من ذلك ، هو ذلك الذى يخلط بين المادية الجدلية ونظريات (تين) ، والذى يريد أن يفسر عمل المفكر برسم حياته الشخصية والوسط الاجتماعى الذى عاش فيه .

ليس فى وسعنا أن نتصور فكرة أبعد من هاته عن المادية الجدلية . ولسنا فى حاجة الى أن نتصور الفكر الفلسفى أو الابداع الادبى ككيانين ميتافيزيقيين مفصولين عن باقى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ومع ذلك فيظل واضحا أن حرية الكاتب والمفكر تلعب دورا أساسيا ، وأن علاقاته بالحياة الاجتماعية علاقات تتخللها كثير من الوسائط ويطبعها التعقيد . وأن المنطق الداخلى لعمل المفكر او الاديب يتمتع باستقلال ذاتى لم ترد نزعة سوسيولوجية مجرة أو ميكانيكية ان تعترف بوجوده» (32). ولكن ان كان فى استطاعتنا ان نعتبر الوعى فعالا وليس مجرد مرآة منفعلة فربما لم يكن فى امكاننا أن ننفى دور العامل الاقتصادى فى تحديد النشاط البشرى فى جميع ابعاده بما فيها الابداعات الفنية ! يعتبر غولدمان أن المادية الجدلية الحقة لا تقول بهيمنة مطلقة للقطاع الاقتصادى على باقى القطاعات .

(31) ibidem
(32) ibid p. 46

فهناك ظروف تاريخية معينة سمحت لما هو اقتصادى بان يتصدر القطاعات الاخرى (9) اذا ما عرفت الظروف التاريخية المجتمعات نفيرا جديدا فربما أسند دور الصدارة الى عوامل غير العامل الاقتصادي : « ما القول اذن فى الرأى الذى يقول بهيمنة العوامل الاقتصادية ؟ أن هاته الهيمنة ، اذا ما اعتبرت فى مجموعها كنظرية التطور التاريخى فهى لا تعنى عند ماركس الا أنه خلال التاريخ الماضى ، سواء لفقر المجتمعات البدائية وعوزها ، أو لتقسيم المجتمعات اللاحقة تقسيما طبقيا ، أضطر البشر الى ان يخصصوا نصيبا وافرا من نشاطهم لحل المشاكل التى تتعلق بانتاج الثروات المادية وتوزيعها ، اى لحل المشاكل التى نطلق عليها مشاكل اقتصادية . واذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن حياة البشر تشكل وحدة تسعى نحو الانسجام ، فان الهيمنة الكمية لما هو اقتصادى على فكر الافراد وسلوكهم تنتهى بأن تمطى للقطاع الاقتصادى دور الاسبقية كعامل ديناميكى فى الصيرورة التاريخية لكن الامر لا يتعلق الا باسبقية فعلية واقعة وليس باسبقية مبدئية منطقية . انها أسبقية معرضة للاختفاء » (33).

تتضح لنا الان الاسباب التى جعلت السوسيولوجيا تنحو نحو النزعة الميكانيكية ، والتى مهدت الطريق لرواج الرأى الذى يقول بانعكاس الواقع على مستوى الوعى والذى يذهب الى ان الوعى مرآة منفعلة . ان هيمنة العامل الاقتصادى فى بعض الاشكال التاريخية التى اتخذتها البنيات الاجتماعيةجعلت البعض يتوهم أن الوعى يكون دوما سلبى الدور . نعم ان دور الوعى قد يتخذ شكلا غير ايجابى، ولكن ذلك لا يتم الا فى ظروف تاريخية بعينها وبالضبط فى مجتمعات يطغى فيها القطاع الاقتصادى . لذا فان نظرية الوعى الانعكاسى ليست نظرية مطلقة الصدق ولا هى مطلقة الخطا : « ما القول فى نظرية الوعى الانعكاسى؟

(33) Ibid pp. 67-8.

هل هى نظرية خاطئة بحذافيرها ؟ طبعا لا . الا أنها لا تعبر عن نموذج صالح لكل الاشكال التى تتخذها العلاقة بين الابنية السفلى والعليا انها لا تعبر الا عن شكل خاص لتلك العلاقة ومتعلــــق بالمجتمع الرأسمالى التقليدى . ففى هذا المجتمع يسعى الوعى الى أن يصبح مجرد انعكاس وليفقد كل وظيفة فعالــة بمقدار ما ينتشر التشيؤ ، وهو نتيجة طبيعية لاقتصاد السوق ، وبمقدار ما يصيب جميع القطاعات سواء قطاعات الفكر والوجـــــدان والعاطفة .

فليست الاخلاق ولا الفن ولا الاداب حقائق مستقلة عــن الحياة الاقتصادية ، كما نها ليست مجرد انعكاس لتلك الحيـــاة . غير أنها تسعى فى العالم الراسمالى الى أن تصبح كذلك كلمــا فقدت اصالتها نتيجة لظهور كل اقتصادى مستقل يسعى الـــى السيطرة على جميع مظاهر الحياة البشرية » (34)

فى النظام الراسمالى يصبح التنظيم اليومى للحيـــــــاة الاجتماعية تنظيما اقتصاديا بالدرجة الاولى لذا فهو يفــرض اولوية الاهتمامات الاقتصادية ويضمن لها الاسبقية فالفرد يصبح فى هذا النظام (انسانا ـ اقتصاديا) بالادرجة الاولى ويكــون بالضرورة اما منتجا أو مستهلكا أو موزعا ، وبالتالى خاضعــا لميكانيزمات النظام الاقتصادى وقوانينه فليس من الغريب اذن ان تاخذ هاته القوانين والاليات نفس الدور عند تفسير حركة المجتمع وانتاجاته المادية والمعنوية ، وليس من باب الصدفة أن يغــدو الوعى هنا مجرد وعى انعكاسى : « يسعى كتاب الراسمال الى أن يبين ان الظواهر الاقتصادية بما هى كذلك ، تشكل وقائــع تاريخية محدودة ظهرت خلال فترات معينة من النمو ، وهى مدعوة لان تختفى عبر التحولات اللاحقة . انها ظواهر تتميز بالدرجــة الاولى بظهور قطاع مستقل عن الحياة الاجتماعية فى كليتــها ،

(34) ibid p. 68

قطاع يؤثر تأثيراً تتزايد شدته على باقى القطاعات الاخرى (...) بهذا المعنى تتخذ الوقائع الاقتصادية قيمة تفسيرية عند دراسة الظواهر التى تتم فى القطاعات الاخرى » (35).

فى المجتمع الراسمالى وفيه وحده ، يصبح الوعى الجمعى مجرد انعكاس ويفقد الوعى كل فعالية ويلحقه مرض الفيتيشية والتشيؤ . ذلك أن نظام السوق هو المصدر الاجتماعى للتشويه الذى يلحق الفعاليات البشرية لانه يكسب كافة الموضوعات قيمة تبادلية فتفقد فيه قيمتها المباشرة والاستعمالية من حيث انها قادرة على اشباع حاجات معينة . ففى هذا النظام يتسم كل شىء بالصبغة الاقتصادية وترتبط الاشياء بعلاقات اجتماعية ويرتبط البشر بعلاقات مادية « فبالنسبة للمجتمع الراسمالى وفى اقتصاد السوق تتغير العلاقة بين العمل الادبى وبين الوعى الجمعى ، أو على الاصح تصبح العلاقة مباشرة بين العمل الادبى والبنية الاقتصادية مادام الوعى الجمعى يتحول فى هذ المجتمع الى مجرد انعكاس » (36) .

يرى (غولدمان) ان الرواية تشكل العمل الادبى الذى يعكس الحياة اليومية فى مجتمع يطبعه نظام السوق : « ان الشكل الروائى يظهر لنا نقلا للحياة اليومية للمجتمع الفردانى الذى يسيطر عليه نظام السوق الى المستوى الادبى . فهناك تناسب دقيق بين الشكل الادبى للرواية (...) وبين العلاقات اليومية التى تربط البشر مع الثروات بصفة عامة والتى تربط البشر فيما بينهم فى نظام ينتج من اجل السوق » (37) : فكيف يتم الربط بين البنيات الاقتصادية وبين الاشكال الادبية التى يعبر بها مجتمع اقتصاد السوق عن نفسه ؟ « لقد افترضنا ، فيما يتعلق بهاته النقطة التقاء عوامل اربعة :

(35) Marxisme et sciences humaines op. cité pp. 22-3
(36) Pour une sociologie du roman p. 366
(37) ibid p. 36

أ ـ ميلاد مقولة التوسط فى اذهان اعضاء المجتمع البورجوازى كشكل أساسى من أشكال التفكير وذلك بفعل سلوكهم الاقتصادى وبفضل وجود القيمة التبادلية (...) وميل هؤلاء الافراد الى النظر الى جميع القيم من زاوية التوسط والوساطة ، ونزعتهم الى أن يجعلوا من المال والميزة الاجتماعية قيما مطلقة لا مجرد وسائط .

ب ـ يظل بعض افراد هذا المجتمع (اشكاليين) من حيث أن تفكيرهم وسلوكهم يبقى خاضعا لقيم كيفية (ومن بين هؤلاء المبدعون للاعمال الادبية) . (...) .

جـ ـ بما ان أى عمل مهم لا يمكن أن يكون مجرد تعبير عن تجربة فردية خالصة، فمن المحتمل ان الشكل الروائى، لم يستطع أن يعرف الوجود ويزدهر الا عندما ظهر استياء وجدانى وطموح عاطفى نحو قيم كيفية اما فى المجتمع بكامله أو عند بعض الفئات الوسطى التى ينتمى اليها معظم كتاب الرواية .

د ـ وأخيرا فقد كان فى المجتمعات الليبرالية التى تنتج من اجل السوق مجموعة من القيم كانت تتمتع باهمية شمولية وصلاحية عامة ، تلك هى قيم النزعة الفردانية لليبرالية المرتبطة بوجود أسواق المزاحمة (كالحرية والمساواة والملكية ...) وانطلاقا من هذه القيم ظهر شكل يرسم الحياة الشخصية وهذا الشكل الادبى اصبح هو العنصر المكون للرواية » (38)

وهكذا فليس ميلاد الرواية كشكل أدبى يعبر عن حياة المجتمع الذى تطغى عليه القيم الراسمالية ويطبعه نظام السوق ، ليس ذلك الميلاد بالامر الغريب « ذلك أن الشكل الشديد التعقيد الذى تمثله الرواية فى الظاهر ، هو ذاته الذى يعيش عليه الناس كل يوم عندما يرغمون على السعى وراء كل غاية والبحث عن كل قيمة

(38) ibid pp. 46-9

استعمالية بكيفية متدهورة يطبعها الكم والقيمة التبادلية . وهذا يتم فى مجتمع لا يمكن أن تولد فيه أية محاولة للسعى المباشر نحو القيمة الاستعمالية الا عند أفراد متدوهرين ، ولكن بكيفية اخرى ، أى عندافراد (اشكاليين) » (39) .

هؤلاء الافراد يحاولون ، فى هذا العالم الذى يسوده الكم على حساب الكيف والذى تحل فيه القيمة التبادلية محل القيم الاستعمالية ، يحاولون ان يستغنوا عن الوسائط ويقدرون الاشياء بقيمتها الحقيقية وبنفعها ومدى اشباعها لحاجيات الانسان لا بقيمة تبادلية شاملة هى المال الذى هو شىء الاشياء لذا فهم يظلون خارج المجتمع وعلى هامشه ويصبحون ابطالا (اشكاليين على حد تعبير (لوكاتش) . لذا فالرواية « تتميز بكونها تحكى عن محاولة للبحث عن قيم اصيلة ، بكيفية متدهورة وفى مجتمع متدهور ، ويتجلى ذلك التدهور فيما يتعلق بالابطل ، فى التوسط وفى اضمار القيم الاصيلة وعدم تجليها » (40) .

ان الرواية « هى بحث عن قيم اصيلة فى عالم متدهور » (41) لذا فان الفنان فى المجتمع الرأسمالى هو بالدرجة الاولى انسان معارض للقيم التى تسود مجتمعه « ففى المجتمع الذى يربط باقتصاد السوق يكون الفنان شخصا اشكاليا اى ناقدا ومعارضا للمجتمع » (42) « فباسم تلك القيم التى تكون الوعى البورجوازى فى فترة تكوينه يقوم الروائى ضد مجتمع او صنف من المجتمع ينفى بالضرورة فى حياته العملية ما يتبجح به من قيم . لذا فان رواية البطل الاشكالى هى دوما فى بنيتها رواية انتقادية واقعية. انها تثبت استحالة قيام نمو اصيل للشخصية » (43) ذلك ما

(39) ibid p. 39
(40) ibid p. 35
(41) ibid p. 23
(42) ibid p. 56
(43) ibid p. 367

يفسر العداء الذى يناصبه الفكر البورجوازى للفن بصفة عامة وللادب على الخصوص « فالسمة الاساسية للفكر البورجوازى وللعقلانية هو جهلها للفن ووجوده ، فلا وجود لاستيتيكا عند ديكارت أو عند سبينوزا وحتى عند بومغارتن ليس الفن الا شكلا سائجا المعرفة » (44) .

ها نحن نرى المكانة الاساسية التى تتخذها نظرية التشيؤ فى السوسيولوجية التكوينية . وما ذلك أيضا الا امتداد لاراء لوكاتش . فنحن نعلم جميعا الاهمية التى يعطيها كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » لذلك المفهوم فى اقتصاد السوق يتشيأ الوعى ويفقد كل قيمة وكل وظيفة لكى يصبح مجرد انعكاس الحياة الاقتصادية . لذا فان العلاقة بين البنيات الاقتصادية والعمل الادبى لا تتم فى المجتمع الاراسمالى ، عن طريق الوعى الجمعى كما كانت ترتئى السوسيلوجيا التقليدية بل خارج ذلك الوعى . لا يكفى اذن ان نربط العمل الادبى بالواقع الاجتماعى عن طريق الوعى الجمعى الفعلى الحقيقى مادام هذا الوعى قد يتلاشى وينعدم ولابد من مفهوم جديد ذلك هو مفهوم الوعى الممكن .

5 — الوعـى الممكـن :

حاولت معظم الدراسات السوسيولوجية ، قبل لوكاتش وغولدمان ، أن تجد علاقات بين الاعمال الادبية ، وبين الوعى الجمعى لهاته الفئة أو للاخرى وتوهم نقاد الادب « أن الحياة الاجتماعية لا يمكن أن تعبر عن نفسها على مستوى الاداب والفن والفلسفة الا عبر حلقة وسطى هى الوعى الجمعى » (45) . لكن العمل الادبى فى رأى (غولدمان) ليس مجرد انعكاس لوعى فعلى حقيقى وان « ما يفصل السوسيولوجيا الماركسية عن

---

(44) ibid p. 55
(45) ibid p. 43

النزعات السوسيولوجية الوضعية والنسبية او التلفيقية ، هو أن الاولى تعتبر ان المفهوم الاساسى ليس هو الوعى الفعلى الحقيقى بل هو الوعى الممكن الذى يسمح وحده بفهم الوعى الاول » (46) ان كل فئة من الفئات الاجتماعية تبنى وعيها وبنياتها الذهنية فى علاقة متينة مع ممارستها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية داخل المجتمع فى كليته . ولكن ليس هناك وجود للوعى الجمعى خارج وعى الافراد . وكل فرد يشكل جزءا من عدد هائل من الجماعات بحيث يكون وعيه خليطا متباينا بل ومتناقضا ذلك ان الفرد يتلقى تأثيرات جماعات لا ينتمى اليها بواقعه الاجتماعى . وهكذا فلا وجود للوعى الجمعى الا كحقيقة ممكنة وكامكانية داخل وعى كل فرد من الجماعة . لذا فالوعى الجمعى هو فى سائر الاحوال ميل ونزوع أكثر مما هو وجود فعلى . « فالوعى الجمعى ليس واقعة أولى ولا حقيقة مستقلة . انه يتكون ضمنيا داخل السلوك العام للافراد الذين يساهمون فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية » (47) واذا كان الوعى الفعلى للجماعات لا يقترب الا قليلا وفى فترات وجيزة من الانسجام ومن التعبير عن حقيقة الجماعة فان الوعى الممكن قد يجد تعبيره الفعلى من خلال تأملات فكرية او أعمال خيالية لبعض المبدعين . وهكذا فضد سوسيولوجيا الاداب التى تجعل اهتمامها ينصب على المحتوى وانعكاس الوعى الجمعى الفعلى ، تقوم سوسيولوجيا مغايرة تهتم بالبنيات وبالوعى الممكن « فاذا كان على عالم الفيزياء أن ياخذ بعين الاعتبار مستويين من المعرفة : المستوى النموذجى المثالى : وهو مطابقة الفكر للاشياء ثم المعارف الفعلية التى يعرفها عصره والتى تتوقف قيمتها على مقدار بعدها عن تلك الاشياء ، فان على المؤرخ وعالم الاجتماع أن يضيفا الى اعتبارهما عنصرا ثالثا على الاقل يتوسط

(46) ibid p. 41
(47) ibidem

المستويين السابقين : ذلك هو اقصى وعى ممكن الطبقات التى تشكل المجتمع الذى يحللانه .

ان الوعى الفعلى هو حصيلة لعدة حواجز وانحرافات تفرضها مختلف عوامل الواقع التجريبى لتحول دون تحقيق هذا الوعى الممكن . ولكن ، مثلما أنه من الضرورى لفهم الطبقة ، ذلك الواقع الاجتماعى الاساسى ، (...) فان من الضرورى كذلك أن نفصل الوعى الممكن لطبقة ما عن وعيها الفعلى فى فترة ما من الفترات التاريخية » (48) فالوعى الفعلى يكون دوما ناتجا عن تحديدات وانحرافات تفرضها على الوعى الطبقى تاثيرات مختلف الجماعات والعوامل الطبيعية والكونية ، اما الوعى الممكن فهو يعبر عن امكانيات وذلك فى مستوى الفكر والعمل « فاذا كان الوعى الفعلى الحقيقى لطبقة ما هو ما تعرفه عن واقعها فى فترة معينة و فى بلد بعينه » (49) بعينه » (49) فان « الوعى الممكن هو أقصى ما يمكن لطبقة ان تعرفه عن واقعها دون أ تعارض المصالح الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بوجودها كطبقة » (50) . الطبقة الاولى ، وهى الطبقة التى تتمتع بوجود حقيقى هى الطبقة — فى — ذاتها اما الثانية فهى طبقة — من اجل — ذاتها .

الوعى الممكن اذن هو « اقصى ما يمكن ان يبلغه وعى الجماعة دون أن يؤدى ذلك الى تغيير طبيعتها » (51) . فهو اذن امكانية . وبما « أن العمل الادبى والفنى لا يتحقق الا حيثما يوجد طموح لمجاوزة الفرد والبحث عن قيم كيفية تتجاوز الافراد» (52) فهو اذن يكون تعبيرا عن هاته الامكانية وبالضبط عن تلك

(48) Sciences humaines et philosophie pp. 124-5. éd. gouthier 1966. Paris.
(49) Recherches p. 100
(50) ibidem
(51) Marxisme et sciences humaines p. 126.
(52) Pour une sociologie du roman p. 55.

الإمكانيات التى أطلفنا عليها نظرات الى العالم : « ان العمل الادبى تعبير عن نظرة الى العالم . انه تعبير عن كيفية معينه لرؤية عالم عينى والاحساس به . كما ان الكاتب انسان يتمكن من ايجاد شكل مطابق لخلق هذا العالم والتعبير عنه . ولكنه يمكن ان يحدث تفاوت بين المقاصد الواعيه للكاتب وافكاره الفلسفية والادبية والسياسية وبين الطريقه التى ينظر بها الى العالم الذى يخلقه ويحس به » (53) ذلك ان النظرات ــ الى ــ العالم كما سبق ان رأينا ، لا تعبر عن واقع تجريبى وليست هى معطى من معطيات التجربة .

ليس العمل الادبى اذن تعبيرا عن الوعى الفعلى لجماعة من الجماعات و « اذا كنا نجد انسجاما دقيقا بين بنيات الحياة الاقتصاديه وبين تعبير ادبى معين فانه ليس بامكاننا الكشف عن اى بنية مماثلة على مستوى الوعى الجمعى الذى كان يظهر لحد الان انه الخيط الرابط الضرورى لتحقيق ذلك التناسق او لايجاد علاقة معقوله لها دلالتها بين مختلف مظاهر الوجود الاجتماعى .

ان الرواية التى يحللها لوكاتش لا تظهر نقلا الى مستوى الخيال لبنية وعى هذه الجماعه او تلك بل يبدو انها تعبر على العكس من ذلك (...) على محاولة للبحث عن قيم لا تدافع عنها ايه جماعة فى المجتمع دفاعا فعليا ، قيم تسعى الحياة الاقتصادية لاخفائها ولان تجعلها ضمنية مضمرة عند جميع افراد المجتمع » (54) .

ها نحن ابعد ما نكون عن السوسيولوجيا الميكانيكية التى ترى فى الاعمال الفنية مرآة لوعى أصحابها والتى تعجز فى بعض الاحيان عن تفسير بعض الاعمال التى لا يكون من السهل ربطها بكل سهولة بهاته الجماعة أو تلك وهذا شأن اغلب الاعمال

(53) Recherches op. cité p. 49
(54) Pour une sociologie du roman p. 43

الفنية التى تتمتع بقيمة كبرى . ذلك « أن العمل الفنى الـــذى يوافق البنية الذهنية لهاته الجماعة أو تلك قد يكون من خلق (...) فرد لا يربطه بتلك الجماعة الا رباط رهيف » (55) . فهذا «بلزاك المحافظ الرجعى يتمكن من وصف جيد لرذائل ارستقراطية فــى طريق الانهيار » (56) .

* * *

تلك هى المفاهيم الاساسية للسوسيولوجيا البنيوية التكوينية التى ارسى قواعدها ج. لوكاتش وحاول غولدمان ان يعطيهـــا شكلها النظرى النهائى وأن يطبقها على دراسة بعض الانتاجات الادبية والفلسفية . كاعمال راسين ومالرو وكنط وسارتر وذلك فى مؤلفات عديدة اشرنا الى بعضها ويجب أن نضيف اليها مؤلفه الاساسى «الاله المختفى»(57) الذى يعطينا هو عنه ملخصا يركز فى ذات الوقت الخطوا ت الاساسية لمنهج البنيوى التكوينى فيقول: « لقد تبينا ، ونحن نعد كتابا حول كنط ، فى الفكر النقدى احدى التجليات الفلسفية الاساسية للنظرة المأساوية الى العالم . وتنبهنا مباشرة الى موازاة فكر كنط لفكر باسكال فى فرنسا . وبعد أن درسنا الفلسفة النقدية دراسة باطنية ، بحثنا بالطبع عن أسسها الاجتماعية والاقتصادية . وهذا يعنى أننا تساءلنا ما هى الفئات الاجتماعية التى كان فى امكانها أن تساعد على نمو نظرة مأساوية الى العالم خلال القرن السابع عشر فى فرنسا وعند نهاية القرن الثامن عشر فى المانيا . وان تحليلا للتاريخ ، حتى ولو كان مجرد تحليل سطحى، يكفى ليزودنا بالاجابة عن ذلك السؤال. ان تلك الفئات هى نبلاء الثوب فى فرنسا والبورجوازية فى المانيا . لقــد كانت البورجوازية الالمانية تطمح بكل قواها لتحقيق مجتمـــع ديمقراطى ليبرالى والى خلق عالم يسوده « العقل والحرية ».

(55) ibid p. 42
(56) Recherches p. 48
(57) Le Dieu caché Gallimard. Paris 1956

ولكن ، بفعل التاخر الاقتصادى للبلاد ، فان البورجوازية الالمانية كانت اضعف من أن تحقق ذلك المجتمع الذى كانت تصبو اليه . لذا فان نظرتها الى الانسان أصبح يهيمن عليها طابـع التفاوت وعدم التناسب بين مثلها الاعلى وبين تحقيق ذلك المثل ، بـين النظرية وبين الممارسة . وبالمثل فان نبلاء الثوب فى فرنسـا خلال القرن التاسع عشر كانوا بحكم اصلهم البورجوازى وبوعيهم بانهم يقومون بدور اجتماعى حقيقى ، كانوا ينظرون بنظـرة ملؤها الاحتقار المزوج بالحسد والغيرة لمجون نبلاء السيـف السابقين وقد أصبحوا نبلاء البلاط . وبصفة عامة فانهم كانوا ينظرون هاته النظرة لحياة الفراغ التى كان يعرفها فرسـاى . هاته الفئة كانت تحن الى التغيير والتجديد ولكن بفعل اساسها الاجتماعى كانت اشد التصاقا بالعهد القديم ، الشىء الـذى جعلها عاجزة عن ان تتخذ موقفا اجتماعيا واضحا فى صالـح التغيير . ولقد تولد عن هاته المعارضة نفس تلك النظرة الماساوية التى عرفتها المانيا .

بعد ان وجدنا هذا الاساس الاجتماعى ، لم نتمكن من تفسير اوجه الشبه بين فكر كنط وفكر باسكال فحسـب ، بـل اننـا أستطعنا ان نتبين احدى الاختلافات الاساسية بينهما ، فبالنسبة للبورجوازية الالمانية كان التمزق الماساوى يتم بين الوعى وتحققه، بين المثل الاعلى والحياة العملية . اما بالنسبة لنبلاء الثـوب الفرنسيين فان ذلك الانفصام كان يقوم فى مستوى الوعى ذاتـه، داخل ذلك الوعى بين العقل والواجب والواقع المعاش . وهذا ينعكس كذلك فى أعمال كنط وغوته من جهة وأعمال باسكـال وراسين من جهة أخرى . فالاولى يطبعها التمزق بين الفكر والعمل والثانية الصراع بين العقل والحساسية ، بين الواجـب والاهواء » (58) .

(58) Recherches pp. 43-4

لقد رفض (غولدمان) منذ البداية كل نزعة ذرية تريـد أن تفهم الاعمال الثقافية بالوقوف عند الجزئيات . وحاول ان يدرك المجتمع في كليته وأن يربط ما هو سياسي بما هو اقتصادي بـل وحتى بما هو ادبي أو فني . وهكذا فانه استطاع ان يربط عمل المجتمع من خلال مؤسساته بعمل الادباء والفنانين والكتـاب والفلاسفة كما تمكن من أن يجد بين هاته الاعمال علاقات معقولة وظيفية لا علاقات عنية أحادية الجانـب كمـا كانـت تزعـم السوسيولوجيا الميكانيكية بما فيها بعض النزعات الماركسية .

هاته الدراسة الجديـدة التي أطلـق عليهـا غولدمـان سوسيولوجيا الادب كانت خصاما مع مختلف الكيفيات التي كان التاريخ الادبي أو النقد يتعامل بها مع الانتاجات الادبية حيـث كان الربط بين بعض الاعمال والحديث عن (المؤثرات) يظهـر وحده كافيا لتفسير العمل الادبي أو لدراسته على الاقل .

كما أن هاته الدراسة كانت خصاما مع السوسيولوجيـا الوضعية التي تقف عند احصاء المنتوجات الادبية ، وعند فهـم وضعي لعلاقة الادب بالمجتمع ومفهوم معين للعلية . وقد تبينا أن غولدمان يرفض كل مفهوم أحادي الجانب عن علاقة العلـــة بالمعلول وما ذلك الا نتيجة لرفضه لكل نزعة ذرية وتمجيده لمفهوم الكليــة .

يتبنى (غولدمان) مفهوم الكلية كما هو عند لوكاتش فليست الكلية عنده الكل العالمي في صيرورته بل انه يقصد بها نفـس المعنى الذي يتبناه استاذه واعني « التجربة المجتمعية والتاريخية في كليتها كما تتكون وتكشف عن ذاتها من خلال الممارســة الاجتماعية والصراع الطبقي . ان الكلية عنده هي مجمـوع الوقائع التي نعرفها والاحداث التي ننتجها » (59) لا يتحـدث

(59) K. Axelos : préface de la traduction française de l'ouvrage de La kàcs « Histoire et conscience de classe» éd. de Minuit.

(غولدمان) اذن عن كل متعال عن التاريخ والمجتمع مثلما هــو الامر عند (هيجل) اذ ان الكل عنده يتكون من خلال الممارسة الاجتماعية والصراع الطبقي . ولكننا نستطيع بالرغم من ذلك ان نجد بعض الخصائص الهيجلية في هذا الكل المجتمعي الذي يتحدث عنه صاحبنا، ذلك ان هذا الكل عنده ليس كلا متراتبا مندرجا ونحن لا نستطيع أن نتحدث عند غولدمان عن بنيات اجتماعية بالرغــم من انه هو نفسه يكثر من الحديث عنها، ذلك لان المجتمع عنده يكاد يشبه الكل الهيجلي المتجانس الاطراف والذي يعبر عن ذاتــه من خلال هذا المستوى أو ذاك والذي نستطيع ان نطل عليــه من أية زاوية شئنا لنرى نفس المشهد ونفس درجة التطور سواء على المستوى الفني أو الاقتصادي او الفلسفي الخ ... يقــول غولدمان « وهكذا فان البنيتين ، بنية نوع من أنواع الروايــة وبنية التبادل الاقتصادي ، بنيتان متوافقتان لدرجة أن بامكاننا أن نتحدث عن نفس البنية وعن بنية واحدة تتجلى في مستويــين مختلفين » (60) .فكأن (بنية التبادل الاقتصادي) تلعب نفس الدور الذي تلعبه (بنية الرواية) ، وكأن المستوى الاقتصادي لا يهيمن على الكل المجتمعي بكامله بل انه مجرد نافذة نستطيع ان نطل من خلالها على هذا الكل لتكشف فيه عن تطور منسجم متكافيء . وهو هنا لا يتمتع باي امتياز لاننا أن اطللنا من نافذة أخرى تبيننا نفس المشهد . لان الكل الاجتماعي ليس متفاضلا لا تلعب فيه جميع المستويات نفس الدور ولا تتمتع بنفس المكانة الكل هنا هو جزء من الكل والذات الفاعلة هنا هي هذا الكل ذاته. وقد رأينا أن الاقتصادي لا يلعب دورا أساسيا، دور التحديد في راى غولدمان الا في فترات تاريخية بعينها ومجتمعات معينة

نتساءل اذن الى اى حد تستطيع سوسيولوجيا لا تعتبر المجتمع كلا متراتبا يتكون من مستويات متباينة غير متكافئة ، ولا تعطى

(60) Pour une socilogie du roman op. cité pp. 39-40

المستوى الاقتصادى « دور التحديد فى نهاية التحليل » مهما كانت الفترات التاريخية كيفما كانت التشكيلات المجتمعية ، نتساءل الى اى حد تستطيع تلك السوسيولوجيا ان تطلق على نفسها مادية جدلية ؟ ذلك لان المادية الجدلية « لا تقول بنظرية الانعكاس ولا بنظرية التوليد : أن عناصر الكل لا يعكس بعضها البعض ولا يولد بعضها البعض الاخر . انها تعطى كلها فى بنية متراتبة يحددها مستوى معين ، بنية تحدد طبيعة فعالية تلك العناصر وتاثيرها بعضها على بعض » (61) .

(61) E. Terray : le marxisme devant les sociétés primitives. Maspero. p. 173. Coll. théorie

سالـــم يفــوت

الفلسفة بين التلقائية والعلمية

فى بحثى السابق (1) ، انتهيت الى خلاصة عامة أكدت فيها على نقطتين : نقطة أولى تعبر ان موضوع المعرفـــة ليس واحدا هو والموضوع الواقعى الذى تنح النزعة الاختبارية على اونيته ، كما ان حركة انتاج المعرفة ، وبالتالى انتـــاج موضوعها المتميز من الموضوع الواقعى الذى يسمى بالضبط الى تملكه فى نمط المعرفة ، انما تتم بكاملها فى المعرفة ، لذلـــك أيضا يقوم المنهج العلمى لا على الارتفاع من العينى الـــى المجرد ، بل من المجرد الى العينى بقصد الاستيلاء على هـــذا الاخير واعادة انتاجه فى صورة موضوع معرفة» فى صورة متشخص فكرى. ان المنهج العلمى يقودنا ((من التعريفات المجردة الى اعادة انتاج الوضع العينى والمتشخص انتاجا فكريـــا)) (2). وليس غرضى التوسع هنا فى هذه النقطة بالذات اذ أن ذلـــك يتطلب بحثا كامـــلا .

(1) مظاهر النزعة الاختبارية فى بنيوية ستروس مجلة أقلام العدد الثانى 1976.
(2) Voir K. Marx. «Grundrisse». Fondements de la critique de l'économie politique. Trad. R. Daugeville. Ed. Anthropos 1937. Tome 1 p. 60.

نقطـــة ثانية ركزنا فيها مع انجلز على حضـــــــور الايديولوجية داخل العلم ، حضور الفلسفة داخل العلم ، حتى فى الوقت الذى يحاول فيه العلماء استنكارها . انها تبقـــى حاضرة حضورا عميقا فى ممارستهم النظريـــة وفى فهمهـــم — كعلماء — لهذه الممارسة . غير أن المهم كما يقول انجلز ((هو فقط معرفة ما اذا كانوا يرغبون فى ان يقعوا تحت سيطـــرة فلسفة سيئة ما على الموضة ، أم يرغبون فى الاهتداء بلـــون من ألوان الفكر النظرى يكون له أساس وجذور فى معرفة تاريخ الفكر ومكتسباته)) (3) .

وما سنحاوله فى هذا المقال ، هو بالذات وضع معالـــم لنظرية فى فلسفة العلماء التلقائية، اى اعطاء ترسيمـــة او خطاطة نظرية لموقف العلماء انفسهم من الممارسه النظريـــة للعلم ، اى مجموع الافكار التى تهم ممارستهم العلمية للعلم ، اذ حتى فى الوقت الذى يجاهر فيه بعض العلماء بارادتهم الاكيدة ورغبتهم الصارمة فى الا يتحلى مشروعهم العلمى بالفلسفة ، وفى ان يكون أساس اصالة افكارهم المتعلقة بممارستهم العلم، علمية ما يقولون ، فان ضرورات شتى ، نظرية وغير نظرية، تفرض على نظريتهم للمارسة النظرية ان تكون من منطقـــة جذب ايديولوجى ، تفرض عليهم ، فى محاولتهم فهم ممارستهم النظرية ، تبنى اشكالية لا علمية غالبا ما تكون اشكاليـــــة اختبارية وبذا يقعون فى ((الفلسفة)) من حيث لا يدرون ، الا انها مع الاسف اسوا الفلسفات ، انها الفلسفة الوضعية .

وحتى أوضح ما أريد قوله ، ساقوم بطرح بعض القضايا كى تكون منطلقا فى معالجة الموضوع وفى القاء أضواء كافيـــة

(3) F. Engels - Dialectique de la nature. Trad. franc. E. Bottigelli. Ed. Sociales. 1961. p. 211.

على زاوية النظر التى منها انظر الى المسألة ، ومنها سأدخل الى الموضوع .

أقول مباشرة : أن الفلسفة فى مفهومها العلمى هى فى آخر المطاف صراع طبقى على مستوى النظرية (4) أى أنها فى نهاية الامر دفاع وتبرير لمواقف طبقية مغلفة تغليفا نظريا تدعى التجرد عن المصلحة والتنزه عن المنفعة . لما كان الامر كذلك ، فان مهمة الفلسفة هى خوض الصراع على مستوى النظرية قصد فرض أسلوب فى التحليل والبحث يقوم على « التحليل العيانى للوضع العيانى » . وبالتالى اعطاء تصور علمى للممارسة النظرية نفسها ، اى فرض موقف طبقى على مستوى النظرية نفسها .

بناء على هذا نقول بعبارة أوضح : ان مهمة الفلسفة هو ان تكون نظرية للممارسة النظرية (5) أى نظرية من بين مراميها الاساسية اقامة نظرية علم على اسس علمية حقة .

غير انه تحاشيا لكل وقوع فى المغالاة النظرية (6) يلزم التنبيه الى ان الفلسفة فى الاساس وبصورة رئيسية صراع طبقى فى مستوى النظرية ، وبصورة ثانوية ، محاولة لفرض الموقف الطبقى فى الفلسفة ، فى جميع جبهات المواجهة خصوصا فى الابستملوجية ونظرية العلم . ذلك المعقل الذى تحاول أن تتحصن فيه نزعة من اهم النزعات اللاعقلانية فى التفكير العامى المعاصر : الا وهى النزعة الوضعية . الفلسفة حسب هذا التحديد ، سوف تمدنا بشروط امكان فهم الممارسة العلمية وبالتالى ستكون دراسة للشروط التى تطرح بعض

(4) L. Althusser - Réponse à Lewis. F. Maspero. 1973. p. 41.
(5) L. Althusser - Pour Marx - F. Maspero - 9e éd. 1972 p. 169.
(6) L. Althusser - Eléments d'autocritique. Hachette. 1974. p. 13.

المسائل العلمية فيها ووفقا لها قصد تفويت الفرصة على تيارات الارث الفلسفى التقليدى (7) التى لا تنظر للعلم الا على انه ترجمة للواقع ونسخ له ، مجبلة بذلك الواقع الى واقع منجز والفكر العلمى الى فكر منجز ، وهو تمثل ايديولوجى لواقع الامور ، يريد ، انطلاقا من سلطات مغايرة لسلطات العلم نفسها : وهى سلطات اجتماعية طبقية ، طمس الحقائق باضفاء طابع «الحقيقة العلمية» على تناقضات واقعية ، على اوقعية ، على واقع فى حاجة الى تحويل ...

لذا فحتى عندما نركز بصورة ثانوية على كون الفلسفة ايضا نظرية للممارسة النظرية فاننا لا نهمل البعد التاريخى — الاجتماعى للممارسة النظرية ولا نحصر هذه الاخيرة فى ابعاد مفرقة فى النظرية ، اى لا نجعل منها مادية جدلية على مستوى الممارسة النظرية العلمية وعلى مستوى تاريخ العلوم بل ايضا مادية تاريخية (8) . فاذا كنا قد حددنا مهمة الفلسفة بالقول بانها سوف تمدنا بشروط امكان فهم الممارسة العلمية ، اى انها ستكون معرفة علمية بتاريخ العلوم ومدا لتاريخ العلوم بنظرية فى فهم تاريخ العلوم ذاته اى صناعة لتاريخ النظريات ونظرية لهذا التاريخ نفسه ، اذا كنا قد حددناها بانها دراسة الشروط التى تطرح بعض المسائل العلمية فيها ووفقا لها ، فاننا لا نريد بذلك أن نبرر جدلية النظرى أو ديالكتيك المعرفة النظرية وحسب ، بل نرمى ايضا وبالاساس الى ابراز اهمية الشروط العلمية ، خصوصا واننا نؤمن باولية الممارسة العلمية ، فشروط طرح بعض المسائل العلمية وشروط انتاج المعارف العلمية والتصورات والمناهج .. هى فى نهاية المطاف شروط مادية . حقا أن العلم ممارسة نظرية تقوم على

(7) Pierre Macherey - A propos du processus d'exposition du «Capital» - in Lire le Capital Tome IV. Maspero 1973. p. 8.
(8) Voir. Eléments d'autocritique. op. cit. pp. 52 - 53.

انتاج المعارف بواسطة التصورات والمفاهيم ، لكنها تبقى مع ذلك وفى نهاية الامر ، ممارسة نظرية ليست وحيدة البعد، بل متعددته . انها ممارسة تقوم على التحويل تحويل موضوعات الواقع الى موضوعات معرفة وانتاج التصورات من التصورات ، وبذا فهى ايضا تحويل للواقع وتبشير بممكناته، وان كان ذلك بصورة غير مباشرة .

انطلاقا من هذا تصبح نظرية الممارسة النظرية لا نظرية مادية جدلية ، تصيد الجدلى على مستوى النظرية وحسب ، بل ايضا نظرية مادية تاريخية تريد الا تبقى الصراع الطبقى غائبا عن المشهد النظرى ، اى تريد أن تعرى عن ما هو ايديولوجى داخل الممارسة العلمية نفسها وابراز خلفياته التى هى دائما خلفيات تتحكم فيها سلطات مغايرة لسلطة العلم .

لذا فاول قضية يمكننا طرحها بصدد وظيفة الفلسفة هى القضية الاتية : « للفلسفة وظيفة باللغة الاهمية تتمثل فى خط حدود فاصلة بين ما هو الايديولوجية من جهة ، وما هو للعلم من جهة اخرى » (9) اى ابراز صور والوان تسرب الايديولوجية (النظرية و العملية) الى الممارسة العلمية . وهذا بالفعل ما حاولناه فى مقالنا السابق : لقد كان الغرض الاساسى هو ابراز مظاهر الايديلوجية الاختبارية فى الفكر الستروسى خصوصا وان (بنيوية ستروس تعتبر نفسها منهجا فى المعرفة العلمية كما تدعى انها بلغت نفس الدقة والضبط اللذين بلغتهما العلوم اليقينية .»)(10) معتقدة ان اليقين العلمى يقتضى استنكار الفلسفة والانشداد الى الخبرة الحسية بمعنى النظر الى

(9) L. Athusser - Philosophie et philosophie spontanée des savants. F. Maspero. 1974. p. 26.
(10) M. Marc - Lipiausky - de structuralisme de Lévi - Strauss. Payot 1973. p. 137.

الظواهر دون تصور سابق . وبذا وقعت من حيث لا تدرى فى حبال الاشكالية الوضعية التى تنظر الى المعرفة على انهـا انعكاس مرآوى بين رائى ومرئى . وقد انتهينا الى خلاصات خططنا فيها حدا فاصلا بين تصور علمى للنموذج ومفهوم ايديولوجى له عند ما ميزنا بين نظريتين للملاحظة العلمية ، نظرة تعتبر هذه الاخيرة حيادية وصفية ، ونظرة تعتبرها موجهة ومحددة تحديدا سالفا ومعقدة تعقيدا سالفا ، اى أنها لا تكون ملاحظة الا بتلقى شروط امكانها كملاحظة التى هى شروط امكان نظرية . بين نظرة تعتبر النموذج وليد براعة ومهارة تقنية ، واخرى تعتبره مفعول معرفة نظرية مفرقة بين تصور علمى للنموذج سواء على المستوى النظرى أو المستوى التقنى وبين مفهوم ايديلوجى للنموذج يريد أن لا يخلط بين الفائدة التقنية للنموذج وفائدته النظرية ..

وما نستنتجه من هذا هو ان مهمة الفلسفة هى وضع خط فاصل بين الايديولوجى والعلمى ، لان هناك افكارا خاطئة حول العلم ، لا فى ذهن الفلاسفة وحدهم ، بل حتى فى ذهن العلماء انفسهم . هناك « بداهات » خاطئة ومغلوطة لا تقدم العلم فى شىء ، بل تعوقه وتعرقله . أو ، ان استعملنا عبارات باشلار ، تمثل هذه « البداهات » المغلوطة « عقبات ابستملوجية » تحتاج الى نقد وتعرية بابراز المشاكل الحقيقية التى تغلفها هذه البداهات وانتقاد الحلول الخيالية التى تقترحها (11) . لا ينبغى ان نتصور ان مثل هذه البداهات المغلوطة تسيطر على اذهان الفلاسفة والعلماء صدفة واتفاقا، بل انها افكار وتمثلات لا علمية ، بمعنى أنها ايديلوجية . فهى تمثل ما يمكننا ان نطلق عليه اسم « الايديلوجية العلمية »او ايديلوجية العلماء . ووظيفة الفلسفة بالذات هى اثارة انتباه

(11) L. Althusser. op. cit p. 34.

العلماء انفسهم الى لا علمية ايديلوجيتهم العلمية . ان على الفلسفة هنا ان تتدخل كي تهيء المكان لاقامة خط فاصل بين الايديلوجي والعلمي((ان الايديلوجي شيءله علاقة وارتباطبالممارسة والمجتمع . اما العلمي فهو شيء ذو علاقة وارتباط بالمعرفة والعلوم)). (12) غير ان الايديولوجي مع لا يكون متميزا عن العلمي بل يكون لصيقا به ، اذ داخل العلم والممارسة العلمية نعثر على ايديولوجية ((تلقائية)) هي ايديولوجية الممارسة العلمية . انها تتجلى في صورة قضايا مغلوطة تبرر واقعا خفيا غير ذلك الذى تجاهر وتصرح بتبريره . انها تعرض نفسها لا على انها عرض لمرض دفين ولواقعه خفية ، بل على انه حل (مغلوط بطبيعة الحال) لمسالة تريد أن تكون حلا لها (13) .

وربما في هذه الملاحظة ما سوف يمكننا من ربط ما نقوله الان وما قلناه في بداية هذا المقال : ان الفلسفة تطرح قضايا نظرية (باعتبارها تريد أن تكون نظرية الممارسة النظرية) وتتدخل على مستوى ((النظرية)) ، تتدخل في العلوم وفي الفلسفة وفي الايديلوجيات النظرية : وهذا هو ما يميزها عن باقي الالوان الاخرى من الممارسات بما فيها الممارسة السياسية .

وظيفة الفلسفة الاساسية هي خط حدود فاصلة ترجع في الاخير الى خط فاصل وحيد وأساسي بين الايديلوجي والعلمي .

ان تدخل الفلسفة ذلك على مستوى النظرية تكون له نتائج ومفاعيل نظرية : طرح مسائل نظرية جديدة تتطلب بدورها تدخلا فلسفيا ، كما تكون له نتائج ومفاعيل عملية : مضاعفات على ميزان قوى ((الافكار)) المتصارعة في الميدان .

---

(12) L. Althusser - op. cit p. 49.
(13) Althusser - op. cit. pp. 20 - 21.

ذلك ان كل نصر تحققه الفلسفة ، وان كان نصرا نظريا من الناحية المظهرية ، هو نصر عملى ، خصوصا ، كما قلنا ، انها تتدخل فى ميدان الايديولوجيات النظرية . وهذه الاخيرة ، هى فى نهاية المطاف ، وفى آخر التحليل صور من صور الايديولجية العلمية وقد اتخذت لها صورة نظرية وهذا ما عنيناه بالقول بان الايديولوجى شىء ذو علاقة وارتباط بالممارسة والمجتمع . فالايديولوجية النظرية شكل مموه من أشكال الايديولوجية العلمية ، ما دامت تتخذ لنفسها رداء نظريا تتخفى فيه .

كيف تتسرب الايديولوجية الى العلماء ؟ أو بعبارة أصح : كيف يمارس العلماء الفلسفة بدون شعور منهم ؟ بل كيف يتعاطون الفلسفة رغم استنكارهم لها ؟

انهم يمارسونها من خلال مواقفهم من المشاكل العلمية ذاتها من الازمات التى تعترضهم ، والتى هى أزمات العلم نفسه فهى بهذا المعنى تلقائية عفوية تتخذ فى الاغالب الاعم صورة لاواعية وبهذا المعنى يمكن الحديث عن « فلسفة العلماء التلقائية » .

يقوم التوسير بالتمييز بين ثلاثة مواقف يتخذها العلماء ازاء « أزمات » العلم وهى تعكس أنواعا ثلاثة من «الفلسفات» التلقائية (14) .

الموقف الاول : أمام « أزمات » العلم يحتفظ بعض العلماء ببرودة دمهم ، كما يصرون العزم على مواجهة المشاكل التى يطرحها العلم دون الخروج كلية عن معايير العلم نفسه ، اى دون محاولة طلب النجدة من ميادين أخرى غريبة عن العلم . انهم يفضلون التخبط قدر مستطاعهم فى الصعاب العلمية ، ومحاولة ايجاد حلول لها . بل فى بعض الاحيان يفضلون البقاء فى غموض

(14) L. Althusser - op. cit. p. 68 et sq...

العلم وخوض غمار صعابه دون ان يفقدوا ثقتهم به . ((فالازمة)) بالنسبة لهم ليست ((أزمة العلم)) بمعنى انها تتطلب اعـــادة النظرية ، بل هى مجرد حلقة من حلقات ((تطوره)) انها امتحان من بين تلك الامتحانات التى ينبغى ان يمر به العلم كلما اقبـل على منعطف من منعطفاته الكبرى . انها أزمة مدار وتحول . ففى ((الازمة)) الكبرى التى عرفتها الفيزياء فى نهاية القرن الماضى وبداية القرن العشرين نعثر على علماء من هذا النوع ، لـــم يتسرعوا الى اعلان افلاس العلم كما لم يســارعوا الى القول بان ((المادة قد اغمى عليها)) ، لقد فضلوا الاستمرار بخطــى ثابتة وان كانوا مع ذلك عاجزين عن الاتيان بحجج مضادة لحجج المتسرعين باعلان ((فناء المادة)) .

الموقف الثانى : على النقيض من هؤلاء ، وفى الطرف الاخر نعثر على طينة اخرى من العلماء تفقدهم الازمات جادة الصواب فينصبون محاكم للعلم والعقل والنظريات العلمية ، كما ينادون بضرورة اعادة النظر فى العلم كنمط من انماط التفكير وبطــرح مسالة ((قيمة العلم)) .

مثال ذلك المحكمة التى نصبها ((بوترو)) لمبدأ الحتمية فـــى كتابه ((الامكان فى قوانين الطبيعة)) (1874) حيث يدافع عـــن لاحتمية القوانين الطبيعية باعتبار هذه الاخيرة قضايا افترضتها مخيلتنا وتاكدنا منها عددا من المرات فقط وبكيفية جد محدودة فى مجموعة تجارب محددة ، ثم عممنا بصورة تعسفية قيمتهــا واعتبرناها مطلقة . يقول بوترو ما معناه ان قوانيننا تتكلم عن جميع الاشعة ، عن جميع الاجسام ، عن جميع الوسائل ، مع اننا لم نجر التجارب الا مرات ضئيلة وعلى اشياء محــدودة . واذا لا نتاكد ابدا من القوانين تاكدا مطلقا فمعنى ذلك انها قضايا غير مؤكدة . من يثبت لنا ان فرضياتنا حول المادة والقــوة ..

فرضيات مطلقة وأكيدة ؟ ألا يجوز وجود فرضيات أخرى قادرة على أن تمدنا بتعقيل آخر مغاير ، لنفس الوقائع ؟ مهما تكن نظريات علوم الطبيعة قد بلغت من الكمال ، فلا ينبغي اعتبارها سوى وسائل كلامية معيارنا في تفضيل بعضها على الاخر هو اليسر والملاءمة . آن النظريات العلمية وسائل وحيل مبتدعة للسيطرة على الكون ، ويجب الا تعتبرها أكثر من ذلك . فهي لا تملك أية قيمة موضوعية أو اى معيار صدق ذاتى . هنا يبلغ ((التفلسف)) في ((ازمة)) العلم ذروته لدى بوترو خصوصا عندما ينتهي الى هدم الاساس الموضوعى للعلم والطعن في موضوعية القوانين العلمية، وهو في ذلك لا يخالف ذلك النوع من العلماء الذين ((بدلا من أن يصمدوا بثبات داخل ميدان العلم كي يواجهوا مشاكله المستجدة والمثيرة للاستغراب بل والمخيبة للامال ، ينتقلون الى ((الجانب الاخر)) اى يخرجون من الميدان العلمي ليعتبروه من الخارج : عندئذ من الخارج يطلقون الحكم على ((الازمة)) لذا لا يعود لكلماتهم نفس ما كان لها من معنى سابقا. في السابق ((ازمة)) ، كانت تعني عمليا : صعوبات نمو ، علامات تحول وانصهار جديد يقبل عليه العلم ، حتى ولو كانت تلك العلامات ((نقدية)) . أما الان فان ((أزمة)) أصبحت تعني: انهيار العلم وانهيار مبادئه كعلم ...» (15) وبهذا الحكم الذي يتفوهون به يشرعون في ممارسة الفلسفة . انها فلسفة لا تحلق في الفضاء ولا تتكلم في المعميات . لكنها مع ذلك تبقى فلسفة ، تحاول أن تتخذ موقفا من ((الازمة)) . موقفا لا يخجل في بعض الاحيان من المجاهرة بأنه ((علمي)) ، الا أنه موقف ليس فيه من العلمية الا أنه يستغل العلم والازمات العلمية للترويج لفلسفة يظنون انها فلسفة علمية أصيلة ، لكنها في الحقيقة ليست سوى فتات الموائد الفلسفية المثالية او سقط المتاع الفلسفي .

(15) Althusser - op. cit. p. 59.

انهم يعيدون الفلسفة المثالية اعادة جديدة ، يريدون رد الاعتبار لها وبصورة كثيراً ما تكون غير واعية ، متخذين العلم فى ذلك مطية . ان الموقف الاتفاقى النزعة واللاادرى الذى روج له « بوترو » أثناء حديثه عن الامكان والجواز فى القوانين العلمية وفى الطبيعة نفسها لهو موقف لا يستمد من العلم بل من خارج العلم ، من مصدرين أساسيين (16) : أولهما مصدر دينى مسيحى باعتبار أن المسيحية تقول بوجود جواز وامكان أصلى فى الطبيعة وباستطاعة الله أن يخرق العادات والقوانين . ثانيهما مصدر أيديولوجى أختبارى النزعة يقوم على اعتبار أساس الاستقراء أساسا ذاتيا أتفاقيا واعتبار ان التعميم العلمى تعميم مبتسر وتعسفى وأن لا موضوعية واطلاقية فى المبادىء العلمية .

هكذا نرى أنه من السذاجة بمكان الاعتقاد بأن انتاج الفلسفة امر موقوف على الفلاسفة وحدهم . بل العلماء فى ردود فعلهم على « الازمات » العلمية ينتجون الفلسفة ، انهم يصنعون الفلسفة أرادوا أم أبوا لذا يمكننا القول مع التوسير : « فى كل عالم يوجد فيلسوف راقد ، الا أنه على اهبه الاستيقاظ منذ الفينة الاولى » (17) . مع « بوترو » يستيقظ الفيلسوف فى حلة راهب دينى . لدى هذا النوع من العلماء يستيقظ فى أعماقهم الفلاسفة لا ليقولوا شيئا جديدا ، بل ليعيدوا ويكرروا حسب براعاتهم ومقدراتهم الفردية ، تقليدا معروفا فى تاريخ الفلسفة المثالية : ألا وهو التقليد الروحانى الذى يستغل « أزمات » العلم قصد تكريس وتبرير قناعات دينية برجسون ، برنشفيك). وتاريخ الفكر الفلسفى والعلمى يمدنا بامثلة كثيرة من هذا النوع ، لقد حاول باسكال بصدق طريقته فى التفلسف

(16) Raymond Bayer - Epistémologie et logique depuis Kant jusqu'à nos jours. P.U.F. p. 128. Voir chap. IV.
(17) L. Althusser - op. cit. p. 70.

وامانة منهجيته فى البحث العلمى أن يعطى لاسبتمولوجيته توجيها علميا لا ديكارتيا : لا يربط العلوم والنظريات العلمية بالدين ، وتوجيها تجريبيا بتكوين فلسفة فيزيائية تجريبية الا أن مصاعب كثيرة اعترضته ، ولما فشل فى ايجاد حل علمى لتلك المصاعب، لم يجد مندوحة من الاستنجاد بالدين قصد العثور على ((حل)) لها . من اكبر تلك الصعوبات التى اعترضته ، تفسير الفــراغ وتعليله ، لذا حولها من صعوبة علمية الى قناعة دينية (ليــس الفراغ ماديا محسوسا، الا انه مع ذلك يوجد وجودا واقعيا)(18)

الموقف الثالث : يوجد نوع ثالث من العلماء يمارســون الفلسفة . انهم لا يفقدون جاده الصــواب أمام ((ازمـــات)) العلم ولا ينظرون الى هده الاخيرة على انها ازمة فول وتقــدم وامتحان يمر به العلم كلما أقبل على منعطف من منعطفاتـــه ، بل ينظرون اليها ((كسؤال)) فلسفى . لذا فهم أيضا يخرجون من مجال العلم ، ويقومون أ من الخارج ، بطرح ((أسئلـــه)) فلسفيــــة عـلـــى العلــم ، حـــول شـــــروط صلاحية ممارســتــه ونتائجهـــا ، حـــول أسسه ومبادئـــه . غير انهم خلافا لاصحاب الموقف الثانى ، لا ينشدون حلا ((لازمات)) العلم فى الدين ، بل يحاولون مـــا أمكن ((تغييـــر)) أفكارهـــم والاعتراف بأن ((الازمة)) ايقظتهم من ((سباتهم الدوغمائى)) بل انهم يعترفون كانو بأن فيهم فيلسوفا راقدا صاحبهم منذ انفتاح أعينهم على العلم ، لكنهم يعتبرونه هو المسؤول عن سباتهـــم الدوغمائى على خطل رؤيتهم للعلم وخطـــا نظريـــة ممارستهـــم النظرية. يذمون الفلسفة ويحتقرونها محملينها تبعات نظرتهـــم الخاطئة للواقع العلمى . يعترفون بالفيلسوف الراقد فيهم كان يحمل افكارا سيئة أو فلسفة سيئة وان عليهم من جديد الشروع

(18) Voir - Pierre Guenaucia - Du vide à Dieu - Essai sur la physique de Pascal. F. Maspero, 1976.

فى وضع فلسفة علم مواتية . ((ان أزمة العلم ، فى نظرهم ، مفعول لفلسفة العلماء السيئة ، التى هيمنت على العلم حتى وقتهم)) . (19)

ما يلزم ذكره هنا ، هو أن هؤلاء العلماء يخرجون عن العلم . وإن كانوا لا يصارحون بذلك بل ولا يقبلونه خصوصا وأنهم يعتقدون فى قرارة أنفسهم أنهم لا زالوا علماء ولازالوا داخل العلم . فى نظرنا أن أصحاب هذا الموقف الثالث ، رغم تبجحهم بانهم يعيدون النظر فى العلم من داخل العلم ، ويتفلسفون فيه بالبقاء داخله فانهم فى الحقيقة يموهون على الناس خصوصا بالادعاء بأن فلسفتهم فى العلم فلسفة علمية ، موضوعة من طرف علماء .

هذا بالفعل ما قام به عدد من العلماء فى نهاية القرن الاخير بعدما عرفت الفيزياء الحديثة ((أزمة)) من أكبر أزماتها : ظهر علماء أمثال ((أوستفلد)) و ((ماخ)) ... حاولوا انقاذ ((العلم)) ومده بالفلسفة العلمية المواتية التى كان فى أمس الحاجة اليها كى ((ينتقد)) ((الفلسفات السيئة)) ويتغلب على الصعوبات والعقبات التى هى السبب فى أزمته . ويرى هؤلاء الفلاسفة على العموم أن الاسباب الحقيقية لهذه الازمة هى اصابة فيزيائيى العصر وفلاسفته بمرض فلسفى خطير هو مرض النزعة المادية . وقد اقترح ((ماخ)) كبديل لهذه الفلسفة فلسفته ((الاختبارية النقدية)) التى أغرت بجدتها و ((وجهها العلمى)) كثيرا من الفلاسفة الذين كانوا فى حاجة الى ((بحث نقدى)) جديد فوجدوا ضالتهم فى ((نقدية)) ماخ . كانوا فى حاجة الى فلسفة تنتقد اوهام اعتقادات العلماء السابقين الفلسفية ((الدوغمائية)) و ((المادية)) فوجدوا جميع ذلك فى وصفة ماخ . سبب آخر جعل كثيرا من الفلاسفة ينخدعون بالتيار الماخى هو أن هذا الاخير طرح

(19) L. Althusser - op. cit. p. 72.

مسالة المعرفة العلمية طرحا ترنسبندنتاليا عندما تساءل عن الشروط التى تسمح بامكانهــا كمعرفة علمية وتضمن صحتهــا وموضوعيتها ، ومن هنا استعاد كنط اسمعاده علميه مما ادى بالفلاسفه الذين كانوا يشعرون بحاجه ملحة الى ((كنط)) جديد فى العلم ، الى ان يصفقوا ولا يشعرون باى حرج فى القول بانها الفلسفه نفسها التى كانوا يسطرونها حتى ولو انت على يد عالم. وما جعلهم لا يشعرون بالغربه هو ان فلسفات العلماء ليست فى عمقها فلسفات مغايره لفلسفات الفلاسفه ، أنها ليست فلسفات جديدة ، بل هى تكرار لتقاليد فلسفيه قديمه ، لموضوعـــات لاكها الفلاسفه القدماء وأحياء لها . ففلسفة ماخ وأوستفلد مثلا ليست فى الاخير الا عرضا جديدا لافكــار قديمه ، اى اخراجــا جديدا لاتجاهات قديمة فى الفلسفه ومعروفة : ان العين الفاحصة لا تمكنها الا تستشف فى نزعة ماخ أخلاطا من الاختباريه والاسمية والذرائعية والنقدية ... أو بعباره اوضح . لا نستطيع امــام فلسفه ماخ ((العلمية)) سوى القول بانها فلسفة مثالية . تمتزج فيها النزعة الاختبارية الانجليزية بنزعة كنط النقدية مع بعض معطيات علم نفس الاحساسات فى القرن التاسع عشر. فهى بدعوى محاربة ((النزعة المادية)) ، وبدعوى ان ((الماديــة)) ميتافيزيقا العلوم الطبيعية سيقيم ماخ مذهبا ميتافيزيقيا أسوأ . يقول لينين . ((ان مذهب ماخ بكامله ، من البدايه حتى النهاية، يحارب بضراوة ((ميتافيزياء)) العلوم الطبيعية — وهو الاســم الذى يطلقونه على المادية المعلمية الطبيعية ، أى على القناعــة العفوية ، وغير المقصودة ، وغير المعقولة ، واللاواعية فلسفيا، التى تشترك فيها أغلبية العلماء الساحقة فيما يخص الواقــع الموضوعى للعالم الخارجى الذى يعكسه شعورنا.)) (20)

ففلسفات العلماء هذه ، التى هى نتيجة ((أزمة)) العلــم

(20) المادية والمذهب التجريبى النقــدى . ترجمة منير مشابك دار دمشق 1971 ص 346 .

ليست فى الاخير سوى نزعات انتقائية لا تجد مكانها الطبيعى الا داخل الفلسفة وتاريخ الفلسفة ، لا داخل العلم ، انها تتبنى اشكالية فلسفية معتقدة بذلك انها تقدم حلا للازمة : هى اشكالية النزعة الاختيارية . بذلك نكرر القول بأن فلسفات العلماء هذه تنخرط فى تاريخ الفلسفة وليست تنخرط فى تاريخ العلوم ، اى انها تمت بصلة الى تاريخ الفلسفة وليس الى تاريخ العلوم .

أزمات العلم تكون مناسبة لاستيقاظ الفيلسوف الراقد فى اعماق كل عالم ، استيقاظ الايديولوجية المتخفية تحت صورة فلسفية علمية . هذه الايديولوجية الراقدة هى ما يسميه التوسير: فلسفة العلماء التلقائية . انها فلسفة صامتة ، تعمل فى صمت فى اللحظات التى لا تعرف فيها العلوم أزمات ، علاوة على هذا : توجد لدى كل عالم فلسفة تلقائية انما بصورة لا واعية « فى الاوقات العادية » خلال الممارسة العلمية ، تتخذ أشكالا صامتة ولا مرئية ، أما فى اوقات «الازمة» فانها تتخذ صورا مكشوفة وواضحة . » وهنا نتساءل : هل يعرف العلم ، حقيقة ، أزمات ويمر بها ؟ اليست هذه الاخيرة دائما « أزمات نمو » وتقدم أى أزمات خصبة تنبىء عن تحول علمى كبير وليس أزمات انتقائية تنذر بانهيار الاساس الموضوعى للعلم ؟ من يطلق هذا الحكم ، العلم نفسه أم العلماء ؟ بالنسبة العلم لا توجد أزمة ، لكن بالنسبة للعلماء، لا كلهم، بل بعضهم ، هناك ازمات يمر بها العلم وهذا الحكم لا يعبر فى الحقيقة سوى عن أزمتهم هم التى تعكس رد فعلهم الايديولوجى ـ الفلسفى على عدد من المشاكل العلمية التى لم يكونوا على موعد معها . فالازمة هى الواقع ازمتهم الفلسفية هم .

ومن هذه القضية نتادى الى التاكيد بان : كل ممارسة علمية لا تكون منفصلة عن « فلسفة تلقائية » مرافقة لها والتى هى حسب نوعيتها كفلسفة ، اما تكون فلسفة مادية مساعدة ،

او فلسفة مثالية معيقة ، وبان : كل فلسفة تلقائية تحيلنا فـــى ((نهائية التحليل)) الى صراع تقليدى يجرى داخل ميدان الفلسفة بين الاتجاهات المثاليه والاتجاهات المادية والذى هو صـــراع طبقى على مستوى الافكار . وحتى نضرب مثالا على ذلـــك : لماذا ظهر فى عين بعض العلماء والفلاسفه فى نهاية القرن الاخير وبداية القرن العشرين أن تطور الفيزياء الحديثه تمخض عـــن ((ازمه)) ؟ لماذا صفقوا ايضا لاعذار ((ماخ)) ((اللامادية النزعه)) والانتقائية ؟ لماذا حملوا ((مادية العلوم الطبيعيه)) مسؤوليــة الازمة ورأوا الحل يكمن فى ((الرجوع الى كنط)) ؟ لان الظرف الاجتماعى والاقتصادى والسياسى تطلب ذلك ، ظرف ما بعـــد كـــومـــونه بـــاريس . لقـــد حـــاول منظـــرو البـــورجوازيـــة جعـــل حـــد لانتشـــار عـــدوى ((الحمـــى العمـــاليـــة)) فـــاهتـــدوا الى ضـــرورة التلفيـــح ضـــد المـــاديـــة . و هذا ما جعل ((الكنطية الجديدة)) تطمو على السطح ويرد لهـــــا الاعتبار .

نقـــول اذن :

1 ــ يوجد استقلال العلوم من طرف الفلسفة .

2 ــ يوجد فى ((وعى)) أو ((لا وعى)) العلماء فلسفة علماء تلقائيـــة .

معنى القضية الاولى أن الفلسفة لا تتعيش الا من العلم . الا ان الممارسة الفلسفية مغايرة تمام المغايرة للممارسة العلمية. فاذا كان العلم ((يتقدم)) ويحكم على ماضيه بأنه مـــــاض ((ايديولوجى)) و ((قبل ــ علمى)) ، فان الفلسفة تفتقر بالذات الى ذلك الماضى مادامت لا تفعل سوى ان تعيد نفس المواضيع ونفس المقولات باحثة فى تطور العلم عن مصداق ومؤيدا لها . ان جميع الفلسفات متعاصرة ومتوافقة ، اى أن ليس للفلسفة تاريخ بنفس المعنى الذى يكون به للعلم تاريخ . فاذا كان المحرك الاساسى ((لنمو)) العلـــم وتطـــوره هو صـــراع الافعـــال

الإبستملوجية والعقبات الإبستملوجية ، صراع عوامل الركود وعوامل التقدم فيما بينها داخل نفس الوضع المعرفي أو البنية المعرفية (21) مما يجعل العلم نفسه يدين كل ما يثبط من عزمه ويشل انطلاقه ، فان ليس للفلسفة تاريخ ، وبالتالى لن يكون لها محرك نمو وتطور . اذا كان ما يطبع الممارسة العلمية هو أن صراع عوامل الكبح وعوامل التقدم داخليا يتفتق عن تنقية ذاتية وادانة مستمرة للماضى الايديولوجى « قبل — العلمى » ، فان ما يطبع الممارسة الفلسفيه هو « تواجد » وتعايش تياراتها المتضاربة ، القديمة و « الجديدة » ، اذ حتى فى الفترة التى تسيطر فيها احدى الفلسفات وتحتل مكان الصدارة ، فان ذلك لا يؤدى حتما وبالضروره الى القضاء على الفلسفات الاخرى المعاديه ، بل فقط ، الى اسكاتها واكراهها على الصمت ، وهى فى صمتها تلك تتحين مع ذلك الفرصة والمناسبة للطفو والظهور على مسرح الاحداث ، تتحين الظرف الملائم : اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا . فى تاريخ العلوم ، نجد انفسنا باستمرار امام عملية مزدوجة تقوم من جهة على رفض الاخطاء رفضا كليا مما يؤدى الى اختفائها الكلى ، ومن جهة أخرى على دمج المعارف النظريه السابقة التى لا زالت تثبت قدرتها على مسايرة تقدم العلم فى المعارف الجديدة المكتسبة . نجد أنفسنا أمام « جدل » مزدوج : جدل نفى « الاخطاء » وادماج المكاسب القديمة التى لازالت تثبت صلاحيتها، اما فى تاريخ الفلسفة ان صح أن للفلسفة تاريخ فاننا نجد انفسنا أمام صراع من أجل السيطرة والهيمنة ، تاريخ الفلسفة هو صراع بين اتجاهات متجسدة فى تشكيلات فلسفية ، وهو صراع من أجل السيطره . غير أنه صراع لا يؤدى الى نصر من جانب و هزيمة محققة من جانب آخر ، اى لا يؤدى الى القضاء المبرم على

(21) Voir. G. Bachelard - La formation de l'esprit scientifique. Vrin p. 13.

التيارات المهزومة ، بل الى اختفائها فقط فهو لا يعدمها بـل يرغمها على الانسحاب من الميدان الى حين . العدو الفلسفي ليس كالعدو العلمي (22) انه لا يقهر ، وان كان يفضل الانسحاب الى أن يسمح له الظرف بالظهور من جديد .

معنى القضية الثانية أن هناك مجموعة من الافكار يحملها العلماء فى أذهانهم ، وهى تهم ممارستهم العلمية للعلم .

نقول أيضا ليس لفلسفة العلماء التلقائية مضمون واحد متجانس ، بل مضمون متناقض . ذلك أن فيها عنصرين اثنين :

1 ــ عنصر من أصل ومنبع ((علمي ــ داخلي)) ، نطلق عليه اسم العنصر الاول . ويمثل ((اعتقادات)) و ((قناعات)) العلماء الآنية من تجربتهم العلمية اليوميـــة المباشـــرة : فهـــى اعتقادات وقناعات ((تلقائية)) يمكننا تفصيلها على الكيفيـــة التالية :

1) ــ الاعتقاد فى الوجود الواقعى ، الخارجى والمادى ، لموضوع المعرفة العلمية .

2) الاعتقاد فى موضوعية المعرفة العلمية .

3) ــ الايمان فى قدرة المنهج العلمى وفعاليته .

2 ــ عنصر من أصل ومنبع ((خارجى عن العلم)) نطلق عليه اسم العنصر أساسى . ويمثل مجمـــوع ((الاعتقادات)) و ((القناعات ((المتعلقة بالممارسة العلمية ، غير أن مصدرهـــا ليس هو هذه الممارسة ، بل الفلسفة . وهى اعتقادات وقناعات اتخذت صبغة بداهات مباشرة مما أضفى عليها لونا مـــــن التلقائية تجعلنا لا نشك فى ((غرابتها)) عن الانتاج النظرى للعلم.

(22) Voir. L. Althusser - op. cit. p. 85 et sq...

تتجلى هذه البداهات فى حديث العلماء عن التجربة بدلا من ذكر الوجود الخارجى لموضوع المعرفة العلميه . فى حديثهم عن النماذج بدلا من موضوعية المعرفة العلمية ..

لذا نعتبر العنصر الاول عنصرا ماديا ، بينما العنصر الثانى يبقى عنصرا مثاليا .

فى فلسفة العلماء التلقائية ، فى الاغلب الاعم نجد ان العنصر الثانى هو المهيمن . وهذا آت من كونهم يمارسون العلم ولا يرقون بممارستهم تلك الى مستوى الوعى الفلسفى والعلمى ففرق بين أن نمارس العلم بعفوية وأن نمارسه بعلمية . وان هيمنة العنصر الثانى على العنصر الاول ناتجة عن ذلك . اذ أن العلماء يستهويهم الحديث عن النماذج وعن التجربة ... بدلا من تسمية الامور بمسمياتها الحقيقية . والصراع الذى يجب أن تخوضه الاسبتملوجية ينبغى أن يتوجه بالذات الى محاولة ارجاع العلاقة بين العنصرين الى نصابها . ولن يتم ذلك بمجرد عمل نقدى . بل بالتسلح بنظرية ، بقوة فلسفية تخدم العلم ولا تسخره . ان ما يهم هو تخليص أذهان العلماء من افكارهم المغلوطة حول ممارستهم العلمية وتحويل ممارستهم تلك من ممارسة تلقائية عفوية الى ممارسة واعية . فى هذا الاطار ، يمكن أن يعطى لمفهوم تحالف العماء والفلاسفة معناه الصحيح: اذ هو تحالف سيكون من بين مراميه فرض الموقف الطبقى على مستوى نظرية الممارسة النظرية . يقول التوسير : «ينبغى ان تكون شروط التحالف بين العلماء والفسفة المادية الجديدة على الاخص واضحة . اذا أكرر ان ما يهم هو تحالف تتمكن عن طريقه الفلسفة من أن تدعم العنصر الاول من فلسفة العلماء التلقائية فى صراعه مع العنصر الثانى من نفس الفلسفة : قصد تغيير ميزان القوى الذى لازالت تهيمن فيه

مثالية العنصر الثانى ، وذلك لصالح العنصر الاول ، » (23) آنذاك سيغدو للفلسفة معنى ووظيفة من حيث أنها ستخدم العلم وتعيد أنتاج معرفة علمية .

استراتيجية العمل النظرى هى التحالف من اصحاب الموقف الاول والارتفاع بعلمية موقفهم الى مستوى الموقف الواعى وفضح الخلفيات اللاعقلانية الثاوية خلف افكار أصحاب الموقفين الثانى والثالث .

الدار البيضاء — سالم يافوت

(23) L. Althusser - op. cot. p. 113.

المادية الجدلية ومفهوم التطور (2)

مفهوم التطور فى ابعاده الابستمولوجية والفلسفية

عبد اللطيف الشقورى

1 — تمهيد

ان اوليات الاشكال الفلسفى والابستمولوجى على صعيد البيولوجيا تبتدأ مع كل من (Lamark لامارك 1744 — 1829 و Darwin) داروين 1809 — 1882 . الا أن هؤلاء سبقوا بأفكار تمهيدية عابرة حول مفهوم التطور . فقد خاض الفلاسفة القدماء كعادتهم فى شتى مجالات المعرفة ، بحيث شمل تأملهم الفلسفى ميدان البيولوجيا من خلال بعض الفرضيات التى يغلب عليها طابع التأمل الوصفى ، بطرق الملاحظة فى مستواها الحسى البسيط . وحاول بعضهم صياغة هذه التأملات فى عبارات مشهورة ، كعبارة Anaximandre « ان الانسان ولد من حيوانات تنتمى لنوع مخالف لـه » . او

انظر : « اقلام » العدد الثالث . دجنبر 1976 .

Ampédocle الذى يعتبره البعض من الممهدين للداروينية لانه قال عرضا بالاصطفاء الطبيعى فقد تخلى هذا الاخير عن المفاهيم الدينية والاسطورية حول الطبيعة ، ليتبنى مفهوما ماديا تطوريا للعالم العضوى ، هذا المفهوم الذى انتقل بعد ذلك الى Democrite الذى آمن بالتطور والتغير . هذه الافكار الاولية وجدت بعض النضج النسبى مع ارسطو الذى كان مهتما بالمجال الحيوانى والنباتى ، يأخذ منهما بعض المنتخبات ويؤطرها فى تفسير أو تصنيف معين . الا أن هذه الافكار التمهيدية جميعها اذا ما أخرجناها من اطار العبارات الوصفية ، فلن تتجاوز الاطار التصنيفى خاصة مع ارسطو الذى لم تكن البيولوجيا معه سوى « تاريخا طبيعيا Une histoire naturelle » ، فقد تردد كثيرا بكل معرفته الموسوعية بين المفهوم المادى والمفهوم المثالى للعالم ، وقاده هذا التردد فى الاخير الى اعطاء مفهوم دينى لتطور طبيعة العضوى ، وظل يرتأى أن ما يتحكم فى الطبيعة وتطورها ليس الصدفة أو الانتقاء ، أو تركيب فى مادة العضوى ذاته ، بل ساير الاتجاه الغائى الذى طبع المرحلة اليونانية فلسفيا . ولم يقتصر هذا على اليونانيين بل امتد مع المرحلة ــ الا قبل علمية ــ للبيولوجيا ليظل مشكل التطور مأطرا فى حدود الكائنات الحية على مستوى التصنيف Classification مع طول امتداد سيطرة العلم الارسطى . فمعظم العلماء الذين تأطروا فى حدود التأمل الفلسفى صنفوا الكائنات عن طريق ما بدا لهم من تشابه واختلاف فيما بينها . فظاهرة تطور الكائن الحى لبثت تدور كلها حول اشكالية التصنيف ، بحيث أن ايجاد أى تفسير لهذا الكائن هو محاولة ايجاد تفسير يربطه بنوعه ، ثم احلال هذا النوع فى اطار جنسى يشمله . وزاد الامر تحجيرا ازاء سيطرة المقولات الارسطية فى التفسير ، سيطرة المفهوم الدينى الذى كان يؤكد على ثباتية الخلق من جهة Fixisme وغائية العالم فى

تطوره من جهة أخرى . فالله هو الذى خلق الانواع بتمايزهـا وتشابهها ، كما خلق العالم الذى له غاية الهيـة . فليس هناك تطور بل خلق مباشر يحتوى فى داخله على عود ، وهكذا دواليك ففى هذا الإطار العام لبنية فكرية علمية متخلفة عن رؤية الواقع، كن يستحيل الوصول الى نظرية يتاسس عليها مفهوم التطور . هذا المفهوم فى حدود أولوياته الابستمولوجيا والفلسفية سيتبلور مع بداية القرن التاسع عشر . فاذا كان العلم كبنية فوقيـة مشروطا بوضع تاريخى ، واجتماعى ، واقتصـادى معـين ، فبعض هذه الشروط كان مهيئا وناضجا فى منتصف هذا القرن بالضبط . اذ تمكن العلماء من تحديد الخاصية العامة للكائنات الحية ، هذه الخاصية التى تجلت فى البنية الخلوية «Structure cellulaire» ثم بعد ذلك فى أواخره أصبح من الممكـن ملاحظة كيفية انقسام هذه الخلية ذاتها ، ثم كيف تتم عمليـة الاخصاب ، بالاضافة الى التجارب المنهجية الاولى التى كـان يجريها (منـدل Mendel) . وأضيف الى كل هذا الرصيـد اضافات كل من علم الجيولوجيا و علم الاحـاثة ، و علـم التشريح المقارن . وفى ظل هذا المناخ العام لافق عصر القرن التاسع عشر وضعت اشكالية التطور التى كانت تتطلب الاجابة على العديد من المظاهر التى ترافق الكائن الحى لا فى عضويته الحاضرة ، بل فى ماضيه أيضا . ما هى صلة القرابة بـين هذه الانواع الحية ؟ هل هناك فعلا تطور ؟ كيف يمكن القـول بحصول تطور على مستوى الكائنات الحية ؟ أم ان هناك ثبات كما تقـول الاديـان ؟

2 ــ « لامارك » و « داروين » امام اشكالية التطور

ان تاريخ البيولوجيا فى مرحلتـه العلميـة يبتدأ مـع

« Lamark » (1) الذى اعطى تفسيرا خرج بهذا العلم من حدوده الوصفية الميتافيزيقية ، الى حدود العلم الوضعى (لا ننسى أن القرن التاسع عشر هو عصر الوضعية فى فرنسا) . فتطبيق المنهج الوضعى سيجدد مسيرة هذا العلم فى رؤيا تقدمية اذا ما قارناها بالرؤى الدينية السابقة التى كانت تسود حول العالم والنوع . وهكذا ظهرت تطورية Lamark فى مفهوم ما يسمى بالتحولية Fransformisme تتخذ طابعا تاريخيا يأطر النوع فى تطوره راسما « جغرافية للاشكال الحية » حيث أن هذه الكائنات الحية تخضع فى سلسلة تطورها لمؤثرات اسلافها عليها من ناحية ، ومؤثرات الوسط المحيط من ناحية اخرى . فالتطور يمارس تحولا على مستوى النوع عندما يقترن هذين المؤثرين او أحدهما فيمارس ضغوطه ، حيث تكون النتيجة الحتمية تحولا فى العضوية . ويبدو أن أفكار « Lamark » التحولية لا يمكن فصلها عن « فلسفته الحيوانية » (2) ، فقد كان متعدد الاهتمام العلمى حيث خاض فى الكيمياء والجيولوجيا، الا ان تطوريته تظل محدودة والشىء الاهم الذى نود معرفته هو : الى اى حد تمكنت هذه التطورية من فهم ظاهرة النوع والكائن الحى ؟ ثم هل تحمل رؤياها نفس الدلالة الداروينية، أم أن هناك تباين واختلاف ؟

ان التطور حسب Lamark عملية تعقيد مستمرة تحتوى على سببية فاعلة تؤثر مباشرة فى بنية الاجسام الحية، اذ ثمة قانون يسود الطبيعة ويود انجاز « مخططها العام » (3) فليس هناك قوى خفية أو مبادىء حيويةترتجل فى مسيرتها ، بل تقدم داخلى ونمو متدرج يقود التطور ، هذا القانون الذى

1 ــ اشير الى ان Lamark مع Trevianus هما اول من نحت مصطلح بيولوجيا سنة 1802 .

2 ــ له كتاب يحمل نفس العنوان la philosophie zoolofique

3 ــ نقلا من المرجع الذى سبق ذكره Peirre Thuillier ص 152

يحمله التطور ليس مفارقا له Transcendant بل هو محايث فيه Immanent ، وهو قادر دوما على انتاج سلسلة طبيعية من الحيوانـات والكائنـات الحية الاكثـر تطورا بـدءا مـن النقاعيات (4) Les infusoires الى الثدييات ثـم الانسان الذى هو ارقى درجة فى هذه السلسلة التطورية ، ويمكـن أن نلمس فى هذا القانون التطورى اطروحتين أساسيتين :

1 ــ فهناك ما يسميه « الامتداد الفطرى للتقدم »
La tendance innée au progrès

2 ــ ثم مؤثرات الظروف البيئية
«Les circonstances ambiantes»

فالاطروحة الاولى تركز على التكيف مع الوسط من خلال المؤثرات التى يمارسها هذا الاخير على العضوية ، فالحاجـة تلعب مع التكرار دور الضرورة فى ممارسة عادة تلتصق فيمـا بعد بالعضوية ، فتصبح جزءا منها . فهناك المثال المشهور عند Lamark الذى يعطيه عن الزرافة Girafe Camilo-Pardalis) التى عاشت فى محيط بيئى قاحـل ، وحاجتها جعلتها تتطلع الى أوراق الشجر تقتات منها ، حيث امتدت هذه العادة لتصبح ضرورة مكتسبة لدى كل جنسهـا ، وذلك حسب نمو وطول رجليها الاماميتـين وعنقها الممتـد . ولاتمام تفسيره عن تطور النوع يضيف Lamark الاطروحة الثانية : (انتقال الخصائص المكتسبة وراثيا ، فالحيوان ينقل على طول امتداد حياته الى سلفه هذه الخصائص التى تثبت من جيل الى جيل . حتى اذا لم يستعمل الحيوان هذه الخصائص الجديدة فى عضويته ، توقف نموها ، ويكون ذلك بداية زواله كنوع ، « فالجلد Tampe » الذى يعيش فى وسط محروم فيه

4 ــ حيوانات مجهرية من ذوات الخلية الواحدة تعيش فى السوائل وفى نقاعات المادة العضوية

من الضوء يكون أعمى . والتطور فى اطار هذين الاطروحتين يحكم مسيرته الضرورية مثاليا ، فالتطور يعطى دوما نتاجه . فمن العضوية الى اللاعضوية هناك عود يبتدأ بهذا « الخلق التلقائى » لكائنات أكثر اتقانا ، اذ للمبدأ دوره ممتدة ، ولهذا نجد « «Gillispie» » : « يستخدم صورة وصفية تفاجئنا : ان الطبيعة اللاماركية تعمل كسلم آلى Un escalier roulant » (5) بيد انه يوجد اختلاف جوهرى بين تطوريه Lamark وتطورية Darwin . فالاول يركز أكثر على الطبقات الحيوانية أو ما يسميه « بالطاقات الكبيرة Les grandes masses » ، بينما يركز داروين Darwin على الانواع وأصلها ، مفسرا ذلك بنظريته الاساسية : الانتقاء او الاصطفاء الطبيعى La selection naturelle وقبل عرض تطوريه Darwin ، نود طرح هذا السؤال مع احد مؤرخى العلم : « Mtienne Gilson » فى كتابه « «D'Aristot à Darwin et retour» » فهو يتساءل هل كان حقا كل من Lamark و Darwin تطوريين ؟ ثم يجيب عن ذلك بالقول : أن Lamark لم يستعمل كلمة تطور ، بينما Darwin انتظر حتى الطبعة السادسة لمؤلفه الاساسى « أصل الانواع » فى سنة 1869 ليلمح بطريقة متباطئة الى « المبادىء الاساسية للتطور » . الا أن P. Thuillier يرد قائلا : انه من التعسف القول بأن كبار التطوريين لم يتكلموا عن التطور . فاذا ما كان اللفظ كدلالة لغوية عندهم غائبا وهامشيا فيجب أن نتساءل لماذا ؟ فكلمة تطور نفسها من الناحية الابستمولوجية خضعت لتطور ، ولم تحمل نفس مدلولها الحالى : « تطورية متصاعدة تقود الى اشكال جديدة غير متوقعة » . والمفاهيم التى حملتها لفظة تطور ، فى مختلف دلالاتها كرواسب هى التى جعلت « داروين » يحترس كثيرا فى استعمالها اذ لبث يستعمل صيغا من قبيل « تحول الانواع » « التحول

5 — ibid ص 153

بالاصطفاء الطبيعي » ، ينتهى بعد لاى طويل الى العثور على مفهوم التطور ، الذى كان يستعمله Herbert Spencer (1820 — 1903) وعلى امتداد واسع فى مذهبه الفلسفى . فقد عرف هذا الاخير التطور تحت صيغه غامضة فضفاضة : « التطور هو تكامل المادة ، وما يصاحبها من تشتت الحركة تشتتا وتكاملا ، تنتقل المادة فى اثنائهما من حالة التجانس المفكك غير المحدود الى حالة اللاتجانس المتماسك المحدود ». (6) ويبدو أن مفهوم التطور عند Spencer يدخل فى اطار صياغة فلسفة عامة ، تحتوى فى مضمونها تنظيرا يضم كل اشتات العلوم : البيولوجيا ، السيكولوجيا ، السوسيولوجيا ثم الاخلاق ان هذا التطور يتضمن مذهبية واسعة هى مجموعة من المبادىء تكتسى صفة الشمول . وهو مفهوم تطغى عليه الصبغة الفلسفية التى تنزع منزعا كليا فى تأطير المفاهيم لتنقاد فى تحديداتها مؤكدة على العموميات ، دون تحديد لاهمية الخصوصى اما الصياغة الداروينية لمفهوم التطور فهى صياغة ابستمولوجية ان صح التعبير تنطلق من فروض مدعمة بما تجمع له من وسائل اثبات أخضع بكثير منها للتجريب . ومن نتائج هذا التجريب حاول الوصول الى تأطير نظرى يفسر منه اشكالية الكائن الحي تبعا للنوع ، ودور الاصطفاء الطبيعى فى تطوره .

ونشير بادىء ذى بدأ الى وقائع اساسية كان لها التأثير الحاسم فى صياغة ما ورد فى النظرية الداروينية . فالواقعة الاولى هى رحلته على ظهر الباخره Beagle التى اقلته فى رحلة حول العالم استغرقت خمس سنوات (1831 — 1836). ففى هذه الرحلة لاحظ Darwin من خلال الحيوانات التى شاهدها تنوعا داخل النوع نفسه . فسلاحف Tortues جزر

---

6 — الموسوعة الفلسفية المختصرة . سبنسر هربرت ص 179 .

Galapages (7) يوجد بينها اختلاف من جزيرة لاخرى، كما أن بعض انواع الطيور فى أمريكا الجنوبية ، تختلف فى بعض اشكالها من الشمال الى الجنوب . وكل هذه التنوعات أوحت لداروين بفرض خلاصته : ان هناك تحولا تصاعديا فى الانواع. واضيفت الى هذه الوقائع الملاحظة واقعة قراءته للافكار الاساسية التى تضمنها الكتاب الاساسى لـ (Malthus 1766 ــ 1834) منظر الطبقة الارستقراطية : « محاولة فى دراسة السكان Essai sur la population » ، الذى ارتأى عدم وجود تناسب بين التضخم الديموغرافى والانتاج الغذائى ، مما ينتج عنه عملية حذف قاسية من قبل الطبيعة . هذين الواقعتين مما جمعتا فروضا تضمنتهما اطروحتيه الاساسيتين حول مفهوم التطور : الانتقاء أو الاصطفاء الطبيعى والصراع من أجل البقاء . فحسب النظرية الداروينية هناك احتفاظ Conservation مستمر فى مجال العالم الحى ، هذا الاحتفاظ التطورى يحمل دوما الجديد الذى لم يوجد من قبل ، فحاضر التطور ليس سوى منطلقا لبداية لا حدود لها ، بحيث ينتج عن ذلك تنوع فى الكائنات الحية . فاذا ما تساءلنا مع Darwin ، ما هو السبب فى تنوع النوع ثم انقراضه بعد ذلك ، لالفينا الجواب عنده لا يقتصر على حدود تغير فى المعطيات البيئية العامة كما نجد عند Lamarck ، وأن كان لا يستبعد دور هذا العامل فى عملية التطور ، وليس راجع بالدور الى مساهمة الوراثة فى ابراز هذا التنوع ، بل تكون الفرضية الداروينية التى ترجح احتمال التطور فى النوع، الى عملية انتقاء طبيعى Selection naturelle . ويمكن ان نفرق عنده بين ما يسميه « انتقاء مصطنع » يتم من خلال توجيه الانسان وتدخله ، وبين انتقاء طبيعى . فالانسان يرتأى

7 ــ مجموعة 5 منيلات فى المحيط الهادى .

فى نوع معين خصائص أو صفات يريد أن ينقلها لخلق نتاج جديد يكون نافعا له ، ويتضح ذلك من خلال الامثلة الواقعية فى علم الزراعة حيث تتم عن طريق التلقيحات والمزاوجة ما ينتج عنه محصول غذائى أو حيوانى جديد . ولعل المدرسة السوفياتية وعلى رأسها Ivan Mitchourine هدفت فى ابحاثها البيولوجية الى تأسيس نظرية جديدة فى الوراثة وتغييراتها حيث لا يكون السبب نابعا من طبيعة ذاتية للنوع فحسب بل من سبب خارجى يتحكم فيه الانسان عن طريق التهجين . فقد عرف أن التهجين لاشكال مختلفة يعطى امكانية الحصول على هجينات تقترن بصفات آبائها ، وتقدم فى هذه الحالة «وراثة غير قارة» ومتقلبة، وهذا ما أشار اليه « داروين » ، Mitchourine وضح أنه يمكن الحصول على اشكال عضوية جديدة عن طريق اخضاع تلك الهجينات الشابة لنمو موجه ، نضمن فيه لها شروطا معينة كالتغذية والاضاءة ... الخ ونحصل بالتالى على اشكال متجانسة . وهذا ما يثبت أن الوسط المحيط يلعب دورا أساسيا فى فاعلية الكائن الحى وأن هناك وحدة بين العضوية وشروط وجودها . ففى التجربة امكن الحصول على فصائل تزيد على ثلاثمائة نوع نباتى يمكن غرسه ، وهذا حسب Mitchourine يقودنا الى النتيجة التالية : « أن تدخل الانسان يمكنه أن يرغم كل شكل حيوانى ونباتى على التغير بطريقة اكثر سرعة ، وذلك فى الاتجاه المطلوب » (8).

اما ما يخص الانتقاء الطبيعى فى اطار المنظور العام لنظرية التطور ، فالامر جد مختلف ، اذ أن هذا الاخير هو نتيجة تدخل الطبيعة لا الانسان ، الطبيعة التى تهدف من وراء هذا الى : « مساعدة الحيوان او الكائن الحى على وجه العموم ،

---

8 — راجع المرجع الذى سبق ذكره ص 67
G. Gourev
« Darwinisme et religion »

للاستفادة من البيئة الى اقصى حد ممكن » (9) فالاصطفاء الطبيعى هو الذى يبرز صفة من الصفات التى يحتوى عليها النوع ، صفة يمكنها ان تمتد عبر الاجيال التى سينسلها النوع، بحيث يمكن ان يتوصل التطور الى سلالة جديدة ليس لها علاقة بنوعها الام من حيث بعض الخصائص العامة . ويرى بعض الدارسين أن « داروين » لم يكن يفرق بين مفهومه للانتقاء الطبيعى ، ومفهومه حول الصراع من أجل البقاء ، أو البقاء للاصلح . فعملية الاصطفاء الطبيعى عملية تلقائية تعطى للنوع الذى استطاع أن يحتفظ بخصائصه الجديدة بقاء لنوعه ، باعتبار أن بقاءه هو بقاء الاصلح : « ان الانتقاء الطبيعى قوة هائلة مستعدة دائما للعمل ، وأنها فى تفوقها الهائل على مجهودات الانسان الضئيلة ، تذكرنا بالفرق بين ابداع فن الطبيعة ، واللوحات التى تصنعها يد الانسان » (10) ونتيجة لتأثره بـ Malthus ذهب يؤكد بدوره ، وربما كان هذا متمما لشرح نظريته فى الاصطفاء الطبيعى ، بأن الكائنات الحية أمام مواجهة صعوبة توفر الامكانيات الغذائية ، وأمام قوة البيئة أحيانا تكون أمام : « تنافس عام » ينتج عنه صراع رهيب كلما كان انتماء الكائن الحى اقرب الى نوعه .

يتضح مما سلف أن تطورية Lamark و Darwin قد حاولت تفسير كم هائل متراكم من الوقائع التى توصلت اليها العلوم آنذاك : علم الاحاثة ، الجيولوجيا ، علم التشريح المقارن . الا أن Lamark اولا لم يستطع التخلص من رواسب وضعية أعطت نظاما مشبعا بافكار تبدو اليوم مناقضة للعلم . فمفهوم الزمان التطورى لديه لا يخلو من سكونية

---

9 — مجلة تراث الانسانية . المجلد الثانى . العدد 12 . ص 985 . 5 ديسمبر 1965 . والاقوال التى سأوردها هنا هى لداروين من كتاب «أصل الانواع»

10 — داروين مجلة تراث الانسانيــة .

فعلية . فهناك تطور معاد ما دامت الطبيعة تود الحفاظ على نظامها . فهذا التكرار الزماني للتطور لا يفتح تلك الافاق اللانهائية ، حيث التطور حركه تصاعدية باستمرار . وبهذا تفقد اللاماركية جزءا كبيرا من جرأتها العلمية . اضف الى هذا أن لغته المستعملة لبثت مشبعه بأثقال تصورات ميتافيزيقية من قبيل النظام الطبيعي او الالهى ، هذا النظام الذى سيبقى ويظل مشدودا بالثبات والخلود . اما اطروحتيه الاساسيتين حول وراثة الخصائص المكتسبة ، ثم ما يسميه « بالامتداد الفطرى للتقدم » فقد وجهت لهما انتقادات اساسية . اذ اثبتت الملاحظة العلمية أن الخصائص المكتسبة ليست بالضرورة والحتم منتقلة الى السلف ، اللهم الا اذا توفر هناك استمداد وراثى . وما يسميه Lamark « بالامتداد الفطرى للتقدم» هو صيغة لمفهوم يبدو بالنسبة للبيولوجيا حاليا اكثر غموضا من بعض المفاهيم الميتافيزيقية ، فهو يفسر كل شىء ، ولا يفسر شيئا . اما الارضية التى انطلق منها « داروين » فتبدو اكثر رسوخا من خلال قانونه « الاصطفاء الطبيعى » : « اننى أعتقد فى الانتقاء الطبيعي ، لا لاننى استطيع أن اثبت ، فى الحالات الخاصة ، انه يغير النوع الى نوع آخر . ولكن لانه يجمع ويفسر جيدا (حسب ما يبدو لى) كما من الوقائع فى التصنيف : علم الاجنة ، الاعضاء الناقصة ، التتابع والتوزيع الجيولوجى» (11)

الا أن هذا الوضوح فى مفهومه اعتبره البعض فرضية ما تزال فى حاجة الى اثبات . فالانتقاء الطبيعى لا يخلو بدوره من غموض ، حتى ولو دعمته بعض النظريات البيولوجية الحديثة ، كالبيولوجيا المجهرية مثلا .

كان طبيعيا عند طرح اشكالية التطور أن تخوض الفلسفة

11 — ص 161 Pierre Thuillier «Jeux et enjeux de la Science» -

فى مواجهنا مع البيولوجيا ، مواضيـــع تهدف الى تأطـــير الطبيعة الحيه فى صيغ قوانين يغلب عليها الطابع التاملى . وهكذا كان الحال مع « هيجل » ، مثلا ، الذى كان يتكلم عن الحيــاه ، وعن الوجود العضوى ، ثم مع الماديين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر . وقد كان الامر كذلك فى اللحظه التى كانـــت نظريه العلم فى البيولوجيا لم تنضج بعد ، والابحاث التجريبية التى تتأسس عليها قليلة ، وتفتقر الى المنهج العلمى الـــذى يعطيها صبغة القانون العـــام . الا أن الوضعيـــة الحاليـــة للبيولوجيات أعطت لمفهوم التطور صيغة وضع ابستمولوجى أكثر منه فلسفي. ذلك لان حدود التعميم والتجريد لم يعد لها وزن على مستوى التأمل الفلسفى الصرف وحده . اذ وصلت البيولوجيا فى تنوع اشكالاتها الى اعطاء حلول ابستمولوجية من داخـل البيولوجيا ذاتها ، وحملت هذه الحلول معها بالدور تفلسفها . اذ يمكننا ان نقول بوجود فلسفة ابستمولوجية يتأسس عليها البنيان المعرفى والميتودولوجى للبيولوجيا . ان هناك تفلسفــا داخليا فى تنوع أشكاله ومضامينه يظل انتماء أقرب الى الطموح العلمي الذى يلد تفلسفه ، وهذه ظاهرة تصاحــب العـــلم فى مرحلة نضجه ، لكى يظل للتفلسف كأساس معرفى وزنه وقيمته. واهم ما يطرح فى هذا المجال كامتداد لاشكالية التطور مفهوما الصدفة والضرورة ثم مفهوم الغائية . فالصدفة والضـــرورة سيتضح لنا من خلال عرض وجهة نظر البيولوجيا المجهرية ، خاصة مع J. Monod بعض اشكالها التطبيقية (12). فـــ J. Monod يتخذ من شعـــار « Démocrite » : « كل ما يوجد فى هذا الكون هـــو ثمرة الصدفة والضرورة » اتجاها فلسفيا يغلف به منظوره البيولوجى للتطور ، الصدفـــة التى تتحقق على مستوى الـــ ADN ، والضرورة التى تستند

12 ـــ راجع الفصل الثالث : البيولوجيا المجهرية وآليات التطور .

على حتمية الانتقاء الطبيعي من اجل تلاحم التليونومية . وكل هذا يتضمن فرضية ومسلمه الموضوعيه (التي يبدو أنهما اساس فلسفي) التي تهدف الوصول ، والحصول على ما هو ثابت Invariant . « فالستراتيجية » العميقه للعلم فيما يخص تحليل الظواهر هي الكشف عن الثوابت . ويبدو أن حدود المنطلقات الابستمولوجيه عند J. Monod سقطت بالرغم منها ، عندما غزت حدود التفلسف في مفاهيم متعارضة لا تتطابق واصالة الكشف العلمي البيولوجي . وهذا حسب (لينين) راجع عندما كان ينتقد انحراف الفيزياء الحديثة نحو المثالية ، الى سبب رئيسي ، هو أن هؤلاء العلماء كانوا يجهلون مقولة الجدل . فثمة فهم آلى مغلق تقوده احيانا حتمية عمياء ، لكل من مفهومي الصدفة والضرورة ، فتصور كل واحد منهما في المفهوم الفلسفي الميكانيكي يقود الى اعطاء مقولات ثابتة ، وتصل الى مفاهيم ونتائج علمية لا على أساس تجديدها ، وتجديد العلم معها ، بل لاثبات تناقص بين حتميتين (الصدفة والضرورة)، وابعاد احتمال تجاوز هذه الثباتية ذاتها . ونتيجة البناء الابستمولوجي والبيولوجي عند J. Monod برمتها تقود ضرورة الى مفهوم آلي للمادة والتطور ، والى شك حتى في العلم ذاته ، فالامر : « كيفما يكن ، فهناك وسيظل داخل العلم عنصر افلاطوني ، الذي كلما حاولنا تحويله الا وهدمنا (هذا العلم) » (13) .

والى جانب هذا الجدل الفلسفي على مستوى الصدفة والضرورة تحيا أيضا نزعة غائية ، سواء في أتجاه « غائية قصوى » كما نجد عند العالم الفيلسوف Le comte Denoj او عند القائلين بغائية مجهرية على مستوى عضوية الكائنات الحية . فهذا الاخير لبث يدافع عن المفهوم التطوري الغائي .

13 — Ibid - J. Monod ص 135

فواقع التطور يظل محدوداً اذا لم نحاول أن نفهمه وفقا لغائية تكون هدفا له : « فالصدفة وحدها عاجزة كل العجز عن أن تفسر ظاهرة « تطورية » ذات اتجاه واحد « يمكن قلبه » (14). فالتطور هنا اشبه عند Denoj بقوة مياه تتدفق من أعلى الجبل ، وتشق لها طريقا نحو الوادى ، وذلك بفعل قوة جاذبة، يبدو معها هذا التدفق ، وكأن جريانه قد حدد مسبقا المسيرة النهائية التي هي : « غائية قصوى توجه التطور باكمله » . وبالرغم من وجود الغاية ، فوسائل الوصول اليها متعددة ، بحث لا ينتفي هذا التعدد مع العلم البيولوجي ، اذ ان هذه النظرية لا تقر بوجود سياق وحيد للتطور ، بل تترك المجال مفتوحا لتنوع السياقات . وقد تبدو هذه النظرية بالرغم من ان ابتعادها عن المفهوم الغائى المبتذل ، أبعد ما تكون عن العلم ولو انها تتكلم من داخله . لقد حاول العلم حتى الان فى مسيرته الاجابة عن الكثير من اشكاليات التطور بدون هذا التصور الغائى ، فاذا ما تبدت بعض المظاهر فى غموضها ، فهذا ليس دليلا كافيا على اعطاء فرضيات هى اقرب الى الميتافيزيقا منها الى العلم . ان قصورا واضحا يتبدى كنتيجة لحمل مفاهيم منطقية تصب على الظواهر من اجل ايجاد غاية يحيد عنها التطور نفسه لو اتبعها . ان مبدأ الغائية فلسفيا يضاد فى البيولوجيا مفهوم الصدفة المحض ، وبالرغم من « بلادته الميتافيزيقية » حسب تعبير Lucien cannot الا انه لا يسقط فى المبدأ الميكانيكى الصرف . فاقتصارنا فى التحليل على مفاهيم الداروينية ، واطلاقية الصدفة ، يكاد يكون « موقفا بسيطا ومريحا » ينتهى فى الاخير الى اغلاق باب الاجتهاد والمناقشة . والى جانب هذه المفاهيم الغائية باعتبارها تصورات منطقية اسقاطية ، وجد من يرتأى غائية مجهرية

14 — آفاق الفكر المعاصر ص 800 .

على مستوى العضوية الحية . وتتمثل فى هذه الادوات الطبيعية التى ترتبط بالكائن الحى ارتباطا وثيقا . فاعضاءه ترتبط بسلسلة وظائف تتحدد وتفيق بالنسبة للكائنات الادنى ، وتتنوع وتغتنى عند الكائنات العليا . اى أن هناك تنظيم غائى يرتبط العضو فيه بالوظيفة ، فى اطار البنية التكوينية للكائن ذاته . فهى غائية داخلية تختص بتلقائية « المشروع العضوى » وتشكله الذاتى .

ان هذا الجدل الفلسفى لا يمكن حصره ، فهو اشكالية تضاف الى القيمة الخاصة لعلم البيولوجيا ، بعد أن يغتنى بامتدادات خصبة فى تفسير الظواهر الحية وتعقيدها . اذ الامر سيظل كما يقول الاستاذ باشلار : « كل مقالة فى الطريقة العلمية ستكون دائما مقالة ظرف ، ولن تصف بنية نهائية للفكر العلمى » .

3 ــ حدود الاشكال فى التطور

يتبين لنا من خلال ما عرضناه ان التطور فى مجاله الفلسفى حمل أوليات الاشكال فى صيغة تنظيرات مختلفة ، بدت جدتها فى هذه النتيجة الاساسية : ليس ثمة خلق (الهى) يقود الى ثباتية فى النوع ، الكائنات الحية تشكيل مادى تطورى وكان هذا بمثابة نتيجة مبرهن عليها فى حدود معطيات المرحلة العلمية التى وصلت اليها المعرفة عن الكائن الحى . ولم تحمل هذه الفرضية الجديدة قلبا (لمعتقدية Dogma) لتثبت سائدة ، بل تضمنت تفسيرا العالم العضوى واللاعضوى ، وارتبطت بمقولات اساسية كالمادة ، والتطور ، والحركية ، والزمان كامتداد تصاعدى ... الخ . وبدخول هذه المقولات فى مصطلح العلم البيولوجى بما تحمله من مضامين ، أصبح الطموح العلمى ، والاول مرة لا يكتفى بالتفسير الانتقالى للسلالة أو النوع ، أى التدرج من حالة الى أخرى Micro-évolution

Micro-évolution بل محاولة تجاوز وقائع التصنيف فى كمها ، واعطاء تفسير لامتداد التطور منذ أصوله الاولى Macro Evolution- على مستوى ظاهرتين أساسيتين فى تاريخ الوجود : الحياة والكائن الحى . وبوضع هذين السؤالين فى اطار تساؤل جذرى أصبحت المواجهة البيولوجية والفلسفية اكثر تعقيدا ، لانها لا تكتفى بالتنظير والبحث عن القوانين ، بل تطمح الى التغلغل فى صميم المادة الحية باحثة عن الاصول التى مكنت الانتقال من اللاعضوية الى العضوية . ويبدو ان الامر غاية فى الصعوبة أمام اعادة تشكيل جديد للمادة الحية فى تطورها المتعاقب . فاذا كان مفهوم التطور قد أخذ وجهة جديدة، فذلك لنتائج الكشف التى استطاعت معها البيولوجيا ان تضبط بعض الخصائص العامة فى آلية الجهاز الحى : ومادامت المادة هى كيفية جديدة حسب المادية الجدلية ، فان ، فان صيغتها التجريبية تعود الى تاريخها ذاته .

ان أول الكائنات التى عاشت فوق سطح محيطنا هذا تعود الى ثلاثة ملايير من السنين او يزيد ، وهى كائنات وحيدة الخلية Unicellulaires (البكتيريا Bactéries والطحالب البدائية Algues nudinentaires ومعظم وثائق علم الاحاثة فى هذا المجال نادرة أو غير كاملة . الا ان الفرضيات العلمية تنطلق من محاولة اثبات ان هذه الكائنات الحية الاولى كانت بسيطة من حيث تركيبها الفيزيو ــ كيماوى ، وعضويتها ، وبالمقارنة مع اشكال الكائنات الحية الحالية أمكن تصور هذه الاشكال البدائية ، وتعريف الحد التطورى الذى يوجد بين المادة الحية والمادة الجامدة . ويبدو أن فرضية تشكل المادة الحية من المادة الجامدة كان لابد أن يخضع لشروط اساسية فى محيط الحياة ذاته . فكان لابد وان تتوفر درجة

حرارية معينة ، وتركيب خاص فى المحيط الجوى الذى احتوى على الخليط التالى : Methane CH_4, Amoniac NH_3 - vapeur d'eau HeO Hydrogen H_2 .

ذلك : « أن موادا عضوية متزايدة التعقيد كانت تظهر بفعل متبادل بين الماء ومشتقات الكاربون ، حتى تشكل (الالبومين) المنصر الاساسى للمادة الحية » (15) .

فالمضويات المجهرية الحالية Micro-organismes فى شكلها البسيط هى نتيجة تشكل كيميائى لعنصرين أساسيين هى أصل الحياة : البروتينات Protéines من جهة ، والاحماض النووية من جهة اخرى Les acides nucléiques فالمرحلة الحالية للبيولوجيا على صعيد التطور استطاعت أن تصل الى تحديد مراحل ثلاث امكن للتطور فيها أن يقود الى ظهور الحياة الاولى ، هذه المراحل هى حسب J. Monod

1 ــ ما حصل فوق سطح الارض من مكونات كيميائية اساسية لدى الكائنات الحية : Amino-acide-Nucleotides

2 ــ التكوين ابتداء من هذه المواد لل Macromolécules الاولى ، القادرة على التفاعل .

3 ــ التطور الذى حول هذه البنيات المتفاعلة ، وانشأ جهازا تليونوميا ابتداءا من الخلية البدائية (16)

الا أن وجه الاشكال فى هذه المراحل ، ليس القبول النظرى او الرفض ، اذ ان التجريب استطاع أن يثبت ذلك ، بل هو كيفية التطور الكيميائى لهذه المراحل ، اذ ما هو التشكل الاول للخلية البدائية ؟

---

15 ــ روجيه غارودى : النظرية المادية فى المعرفة ترجمة ابراهيم خريط ــ بدون تاريخ ص 130 . دار دمشق .

16 ــ Ibid - J. Monod ص 179

ففى لحظة ما على الارض (يبقى الامر افتراضا) تمكنت مكونات Macromolécule البيولوجى : Acides nucléiques et protéines عن طريق تعقيدات واسعة من التركيز والتكثيف (17) Polymérisation بواسطة عملية تمهيدية لكل من Nucléotides و Amino-acides ، من اعطاء كل كيميائى شبيه فى بنيته العامة للـ Macromolécules .

الذى استطاع أن يؤكد هذا شروط التجارب داخل المخبر حيث امكن الحصول على متعدد امينى Polypetide (18) وعلى Polynucléotides بحملات نفس الخصائص (19) ويبدو أن تجربة العالم الامريكى (Miller) فى سنة 1950 كانت حاسمة فى هذا المجال ، اذ بينت من خلال فرضيتها العلمية : كيف أن الجزئيات الغازية التى يتركب منها المحيط الجوى البدائى خضعت لقنبلة أو قذف Bombardement من قبل الاشعة الشمسية حيث انتضمت فى جزئيات اكثر تعقيدا: فكانت اول الجزئيات العضوية (20). وأهم هذه الجزئيات الاحماض الامينية Les Acides aminés التى بانضمام أعدادها نحصل على البروتينات Les protéines التى هى أصل الحياة كما أسلفنا . بيد ان قصة أصل الحياة والكائنات الحية أكبر واعقد من ان نلخصها فى أصول بروتينية . فتكوين هذه الجزئيات العضوية للـ ADN هو حدث اساسى ، علمى فى تاريخ هذه الكائنات الحية ، الا انه قاصر وحده عن تفسير كيفية امتداد الشروط البدائية الاولى لدى الكائنات الحية . وبالضبط

---

17 — اتحاد جزئين او اكثر من مركب ما ، تشكيل مركب ذى وزن جزيئى عالى.
18 — مادة آزوتية مكونة من اجتماع عدة جزيئات من الحوامض الامينية
19 — ص 180
20 — J. Monod - Ibid.

كيفية التطور الكيميائى نفسه ؟ فاذا ما أضفنا الى هذا الاشكال الابستمولوجى عملية انشاء العضوية الاولى ابتداء من الخلية البدائية سنكون حسب J. Monod أمام « الجدار المدوى » اذ ليس لدينا اى فكرة عما يمكن أن تكون عليه الخلية البدائية. صحيح أن : « الجهاز الحى البسيط الذى نعرف ، هو الخلية البكتيرية Les cellule bactérienne التى تحتوى على آلية محدودة ، الا أن تعقيدها وفاعليتها لا يحدان . فقد وصلت الى حالتها الحاضرة من الاتقان بعد أن قطعت مليارا من السنين . والتصميم الكلى الكيميائى لخليتها هو نفسه عند جميع الكائنات الحية الاخرى » (21) . الا أن ابراز تطور عضوية تليونومية لها بنية أكثر قوة وفاعلية بدون أحفور ، يكاد يكون عملية شبه مستحيلة . فاذا ما حاولنا تعميق السؤال ابستمولوجيا وفلسفيا على مستوى التطور ، فان المشكل الاساسى فى البيولوجيا سيعود الى أصول أكثر عمومية وتجديدا ، الى أصل الرمز التكوينى Le code génétique بكل تعقيداته الكيميائية ـ العضوية ، وهنا يرتأى البيولوجى J. Monod انه لا يمكن ان ينصب كلامنا عن « شكل » فحسب ، بل ، عن لغز حقيقى .

أما على الجانب الثانى فتوضع اشكالية ابستمولوجية لها من العمق البيولوجى ما لاشكالية الحياة وأصل الكائنات الحية. هذه الاشكالية الثانية تستأثر بجزء كبير من اهتمامات العلماء البيولوجيين ، بحيث تجعلهم أمام أحد حدود البيولوجيا الاكثر مناعة ، خاصة وهى القسم الذى يشكل الحدث التطورى الاعلى فى سلسلة الكائنات : الوظيفية « التليونومية » للجهاز العصبى المركزى ، كيف تنتظم مختلف وظائفه ؟ وكيف تطور ؟ فوظيفة الدماغ بكل تعقيداتها وتشابكها الالى لم تكتشف حتى

21 ـ J. Monod - Ibid ص 181

الان ، مع كل التمهيدات التى أعطتها مختلف الدراسات منهجيا ونظريا . فمعظم هذه الدراسات تفترق ، وتنقسم أكثر مما تلتقي . والسؤال الاكثر أهمية وصعوبة فى نفس الوقت ما يطرحه النمو (Epigénétique) التكوينى المتعاقب لبنية ووظيفة الجهاز العصبى المركزى . فدماغ الانسان يحتوى على عدد هائل من الخلايا العصبية Neurones (10^{12} الى 10^{13}) التي ترتبط بحوالى (10^{14} الى 10^{15}) من نقط الاشتباك العصبى Sinapse ، التى تجمع وتضم الخلايا العصبية المبعدة بعضها عن البعض الاخر . فهذه المستويات هى التى تنضد تنظيم وبنية الوظائف الدماغية . والاشكالية المطروحة على هذا الصعيد هى أنه : « لا يمكننا فهم وظيفة الجهاز العصبى المركزى ، الا اذا عرفنا على الاقل العامل المنطقى الاولى الذى يكون يكون نقط الاشتباك العصبى Sinapse » (22)

وفى هذا الاشكال تلتقى تأويلات نظرية متعددة ذلك لان معظمها لا يملك فى هذا الصدد الحجج المباشرة . اذ مازلنا : «بعيدين آنئذ عن الكيفية التى تأول بها عملية تحويل نقط الاشتباك العصبى الى حدود تفاعل جزئى » (23) . وهنا يكمن المشكل الاساسى والسر النهائى للذاكرة . ورغم وجود « جهل عميق » حسب J. Monod فيما يتعلق بالاليات الاولية لجهازنا العصبى المركزى ، فان الفيزيولوجية الكهربائية L'électrophysiologie قد زودتنا بنتائج جد عميقة ودالة فيما يتعلق بخواص الخلية العصبية ، ووظائف القشرة الدماغية وتطورها على المستوى المعرفى . انه لشىء مذهش ان يحمل الانسان فى عضويته كل هذا التكوين والتشكيل فى بنيته ووظيفته داخل جسد يبدو اليوم للعلم أنه : « مكون من ذرات تتكاثر فيها الالكترونات والبروتونات ، ودقائق أولية أخرى تتالى بينها

---

22 — Ibid. - J. Monod ص 186 الفصل المعنون Les protéines

23 — Ibid - J. Monod ص 186

التناقلات الكوانتية باستمرار ، وكذلك جملتنا العصبية التي لاغنى عنها لنشاطنا ، فهى أيضا مسرح لعدد لا يحصى من الحوادث الكهربائية الضرورية لتشغيلها ، ان توازن جسمنا كله والعمليات التي تضمن استمرار وجودنا تتوقف على فعل الهرمونات والفيتامينات وعلى عدد هائل من المركبات العضوية » (24) . وهكذا أصبح العلم يتثبت من اجل انتصار جديد يؤكده نمو التطور على مستوى هذه الاداة الرائعة والمدهشة ، « مغامرة الدماغ » فى تطورها وابعد حدودها ، بالرغم من أن التفاؤلية المغلقة لـ J. Monod تقف عند هذه الحدود ، مبرزة لنزعة شكية معرفية : « هذه هى الحدود ، تبدو اليوم منيعة بالنسبة الينا كما كان الامر عليه بالنسبة لديكارت . وما دامت لم تقتحم بعد فالثنائية تحتفظ فى المجموع بحقيقتها العملية . فمفهوم الدماغ والفكر لا يختلطان بالنسبة الينا فى حاضرنا المعاشى ، أكثر مما اختلطا لرجال القرن السابع عشر » (25) .

ونحن سوف لا ننقاد مع هذه النزعة الشكية عند J. Monod أو غيره فى اتجاهات البيولوجيا المجهرية التى تسعى لتقويض مركزية الانسان فى العالم ، وتقود بالرغم من طموحها العلمى الى نزعة علمية ذاتية ، يخطط لها منهج آلى . فالفروض النظرية ابتداءا من الاصطفاء الطبيعى ، ثم النظريات المعاصرة فى الوراثة (التحولا تــ الانتقاء Mutations - sélection) ، كلها تفسر الاتقان المتصاعد للكائنات الحية وتكيفها مع الشروط البيئية المحيطية بها. وهذه الدراسات بينت ان الانتقال من الجامد الى الحى ممكن مع تقدم العلم بالرغم من اننا لا نعرف اليوم بالضبط والتحديد كل أنماط هذا الانتقال . (يتبع)

24 ــ لويس دويرويل والميكانيك التموجى ترجمة سمى وائل الاتاسى . منشورات وزارة الثقافة دمشق 1974 . ص 169 نصوص مختارة

Ibid. - J. Monod

مفهوم المثاقفة في الأدب المغربي

سعيد علوش

كان علينا ان لا نكسب المثاقفة فى اطار الادب وحده ، مادامت تتعداه لمجالات أخرى ، ولعل السبب آت من محاولة حصر الظاهرة فى مجال ضيق على اتساعه .

والمثاقفة التى نفضلها على التغريب أو التشريق عند المغاربة، تأتى نتيجة أزمة الركود او النهضة التى ابتدات أثر التفتح على المشرق .

وسواء على مستوى الدراسات المقارنة ، او الهزات التاريخية التى استثمرتها النخبة الى جانب الطبقات الدنيا ، أو العقدة الفلسفية التى تكونت عند المثقفين وغيرهم . مع اختلال موازين القوى بين العالم المتحضر ، والعالم المتحسر . بما يخلقه من اقامة مقارنات بين المتقدم والمتاخر ، والعلمى والعاطفى ، فان حدة الخلاف لا تزيد الا التهابا بين الحضارتين، الشيء الذى خلق بالتالى موجة من الاثار تمثلت فى تيارات الاصالة أو المعاصرة . بكل أخطائهما فى التبرير والتوفيق والتبعية ويفسر غروبناوم التغريب عند العرب خلال قرن ونصف (بكونه يقدم معونات مختلفة . اذ يبدا اولا بضعف سلطة النخبة

المسلمة على الاصلاح ، وقبولها التأثير الغربى ، بنية استكمال حقائق ، أو تقوية ميراث ما ، لكنها فى الواقع تزيح كل مـــا يظهر لها كنقص ، وهذا النقص يجرحها فى الميدان السياسى.

والمشكل لم يكن هو معرفة ما عليها اقتباسه ، ومن اى مصدر ، ولكـن ما عليها الاحتفاظ به) (الهويـــة الثقافيـــة للاســـلام ص 14) .

وايا كانت أحاديث غرونباوم ملغومة بنوع من الاستعلاء ، او بانتصار منطق البحث على منطق علاقات يمكن أن ينظر اليها من مستويات ، وعلى درجات مختلفة ، فاننا نقبلها مؤقتا كبناء يتحطم وحده أمام بناءات تعارض كيانه .

يتضح من هنا على أن المثاقفة كانت نتيجة تمايز علاقات القوى ، ومحاولة النخبة افساح المجال لانفتاح ، كان علـــــى حساب شعوبها وتبعيتها اللامشروطة . والتفاصيل فى هذا الباب هى من اختصاص السوسيولوجى والمؤرخ ، لهذا يتحدد اطارنا عند عرض الانبهارات التى وقع فيها المغاربة (النخبة المثقفة) امام الشرق والغرب على السواء . على اعتبار أن درجة ارتفاع مؤشر المثاقفة لا يزيد الا ارتفاعا . وأنه لم يتوقف بتاتا عـــــن التصاعد فى قناة لا نريد وصفها لا بالمسدودة ولا بالمفتوحة .

وتبرز ظاهرة المثاقفة عندنا كوعى شقى ، يتدحرج تارة نحو وعى خاطىء ، وتارة أخرى يتعالى فى اتجاه صحو ممكن ، وان كانت العملية تتعلق بنية القصد ، لا بنتيجة المسيرة .

وحتى لا نقوم باية اسقاطات ، ومن اى نوع كانت فـــى حق هذا الواقع المتقوقع فى توهمه . سوف نعتمد الوعـــــــى التاريخى كمنار هدايتنا ، رابطين كل عملية واية حالة تاريخية معاصرة أو تاريخية قديمة بضميرها الوطنى والقومى فى علاقة جدلية بين البنيات الثقافية والبنيات الاجتماعية .

1 ـ ظاهــرة التشريق :

وتأتي هاته الظاهرة كخلاصة متوجة للانبهار الذى حدث للمغاربة بالمشارقة طوال الحقب التاريخية الماضية ، فى ارتباط قومى بعنصرين فاعلين هما الاسلام والعروبة . و (هذه بضاعتنا ردت الينا) ليس بالعبارة التى تخص عملا واحدا او حدثا واحدا، بل لعبت دور هذا السقوط الذى وقع فيه المغاربة ، ضاربين فى التقليد للنموذج الشرقى واستنزافه . والقارىء العــــادى يصدم حسه هذا الارتماء اللامشروط . فى أحضان القصيــدة الجاهلية والعباسية ، والاقبال على نثر القرون المزدهـــــرة كالمنحطــة ، فكنا نلقب شاعرا بمتنبى المغرب لانه يسير فــى ركاب الصورة الزاهية لنموذج ادبى ما .

لهذا ذهب بعض النقاد مثلا الى أن (محمد بن الطيــب العلمى) يذكرنا فى أسلوبه بالصاحب الاصفهانى ، وكذا بابــن العميد . و (العلمى) نفسه فى التحدث عن تجربته . يقول بانه ياخذ عن الصدفى طريقة نظم الابيات ، وعلى أنه يمتلك لغــة تقارنه بالصفدى . بينما نجد رحلتــا (أحمد بــن ناصر) و (العياشى) تخصص معلوماتها عن العلماء المصريين والعرب الذين اشتهروا فى بداية القرن الثامن عشر .

أما عند (ابن زاكور) ، فــان ملخصة شملـــت (حماسة أبى تمام : عنوان النفاسة فى شرح الحماسة) ولامية العرب الشنفرى (تفريج الكرب فى شرح لامية العــرب) ، وبائية صفى الدين الحلى (السنى البادىء فى شرح الحلية ذات البادىء) .

أما (محمد العالم) فانه يقوم باحصاء الاعمال الادبيــــة المدروسة بسوس خلال القرن السابع عشر . اذ يجــد فى أول القائمة (مقامات الحريرى) ، (معلقات الشعراء الجاهلين) ،

(حماسة أبو تمام) (الحماسة المغربية) ودواوين كثيرة (للمتنبى)، (البحترى) ، (ابى تمام) ، (جرير) ، (الفـــرزدق) ، (الاخطل) ، (أبى نواس) ، (بشار) .

ويضيف الشاعـــر (محمد بن أحمد بن ابراهيم الخورى) شهادته بسرد (يتيمة الثعالبى) و (نفح الطيب للمقرى) .

ومن القرن السابع عشر نقف عند (اليوسى) الذى نظم قصيدة تنيف عن المائة والخمسين بيت ينهيها بسلسلة مـــــن الابيات تبتدىء بمن وما على غرار (معلقة زهير). الا أن هذا يهن بالنسبة لمخطوط (زهر الاكم) ، والذى يصل الى ثلاثمائة صفحة من الحجم الكبير ، والمركز فيه على ترتيب الامثال والحكم المشرقية حسب الترتيب الابجدى .

ومما يحمل دلالة معينة ، نقتطف من المخطوط ما يلى : (طفقت اجول فى عرصات الادب ، وما له ماسه بكلام العرب ، ولم أزل اتتبع ظلالها أنتسف بلالها .. فلما امتلا بحمد الله من ذلك الوطاب ، وعاد البلح الى الارطاب ، هممت أن أجمع مـــا علق فى هذا الوقت بخاطرى، مما ترقى اليه نظرى وناظرى فى كن يأويه ومجموع يحويه حذار من النسيان عند تطاول الزمـــان . فألفت هذا المجموع فى الامثال ، وأودعته كل دمية وتمثال ، ثـــم رأيت أن أضم اليه كل من الحكم جملة .. تتميما لفائدة ...) (زهر الاكم / مخطوط باريز) ومع بعض التمعن فى الحديـــــث التقدمى هذا تتضح دوافع كتابة اليوسى كــ : / جمع / تاليف فائدة / تطاول الزمان .

وعلى العموم فان ايديولوجية أبناء المغرب فى القرن السابع عشر والثامن عشر كنموذج ، وكل من شملتهم أجزاء (المعسول) خـــلال قرننا ، أو الذين وردت اسماؤهم فقط باحدى التراجم/ كعلامة مميزة لقرون طويلة من الادب المغربى / يندرجون فى

اتجاه واحد ، يؤطره هدف واحد ، بدعوى دينية عربية أو بغيرها للحفاظ على العلاقة التى ربطت المشرق بالمغرب بنفس المحافظة على الكتب الدينية ، وهذا لا ينزع عن المغاربة عبقرية ما بالنسبة للباحثين عن العبقريات وتصنيفها .

الا أننا ننزع فى مجالنا ، لاستحضار هذا الجانب الشاذ فى الثقافة المغربية ، مادام كتائيب الثقافة الرسمية ، لا يعنون الا بالجانب الذى يريدونه ايجابيا لسبب أو لاخر ، تحت وهم الاصالة .

والواقع الذى لم يقع هو أن الاهتمام بهذا الجانب المنسى ، أو ما يسمى بخفى النصوص والاحاديث النخبوية عند علمائنا / العلم كتميز عن العامة /.

واذا كان العمل الذى نقوم به الان ، ليس الا مسودة لدراسة موضوع ضخم وهائل ، فان الغاية من قفزاتنا هاته، ما هى الا وضع بعض نقط استفهام لم توضع ، وتعليم خطوات لم تعلم ، وبالتالى فاننا نريد أن نفهم من عدم تعرضنا لفترة حالية أشياء كثيرة ، لا يدركها الا وعى مشفى عند اقلية ما .

2 ـ ظاهرة التغريب :

وعلى العكس فاننا نفضل الحديث عن القرن العشرين داخل اشكالية جديدة ، تكتسب حدتها من مجريات ذات خصوصية معينة، ذلك أن التغريب اجتاح المشرق والمغرب فى هاته المرة، اذ منذ مائة وخمسين سنة والعالم العربى يبحث عن نفسه لكن فى مرآة غربية للاسف ، وقد يجدها وحدها ، ربما يعثر عليها فوق صورة الاخر (الغرب) ، من هنا يقول غروناوم (أى دلالة نعطى لنداء كهذا ؟ اذا أخذنا فى اعتبارنا تطور الادب العربى المعاصر (النثر العربى خاصة) ، والذى يرتكز فقط

على تمثل أشكال غربية (رواية، قصة، ، اقصوصة ، مسرحية) (المرجع السابق).

ويمكننا أرضاء غرونباوم اكثـــر ، وتاكيد رأيه بمــــا يسرده العروى كتمثيل لما يهدف اليه كتابه عن (الايديولوجية..) من (اظهار انعدام وجود مفكر واحد منذ بدايـــة النهضه الـى اليوم سالم كليا من تاثير الافكار الخارجية .. ان المفكر العربى منذ النهضه يرد على الغير ... من يدعو الى رفض الافكـــار المستوردة اليوم ، بعد مرور اكثر من قرن على ((النهضـــة)) وعجز جميع المصلحين عن السباحة فى غير محيط الافكـــــار والنظريات المستوردة بقدر ما تتخلص فى ضــــرورة الاختيـــار) (العرب والفكر التاريخى ص 23) .

(المسألة الان بالنسبة للعرب لا تتعلق برفض الافكار المستوردة بقدر ما تتخلص فى ضرورة الاختيار (السابق ص 24)

وبالطبع فان طرح الاشكاليات المادية ، من الجانب النظرى والبحوث المعرفية بلونها بلون هاته المناهج ، ويحبسها داخل نظريات، لا يصعب تقييمها نظريا ، ولكنها ستفصل عن واقعها الاول ، لتجد فى واقع البحث واقعا ثانيا ، قد ينفصل تماما عن الواقع الاول ، وقد ينجح فى عكس بعض جوانبه مضعفا ايـــاه على حساب الواقع اللغوى الذى يسيطر على الباحث والمثقف اللاعضـــوى .

والخطورة لا تتحدد فى الاخذ باراء المنظرين أو طرحـــها ، ولكن فى الاستئناس بها فقط ، مادامت تاتى كبديل محول للاتجاه.

ويبقى بهذا الجهاز الثقافى المنبه الى فراغ الساحـــــة الثقافية من اى مفكر ، اللهم الا من المفكر المغرب ، كفكر مغرب بدوره .

واذا كانت النماذج لا تعوزنا مع المغاربة الذين اختاروا الكتابة بالفرنسية أو الاسبانية أو الانجليزية ، كاختيار فى نفس الوقت لقراء آخرين ، وثقافة أخرى واتجاه آخر • فان الاشكال يقع على النصوص العربية التى تنفذ اليها المثاقفة عن طريق الترجمة والصحافة والتى لم تفلت من التيارات الوجودية والسريالية والمذاهب الجديدة ، وقد لعب الادب المغربى العربى ولفترة غير قصيرة هاته الورقة الموضوية على غرار المشارقة والغربيين •

هل نحن بحاجة الى ايجاد هوية أخرى غير هاته ؟

ما هى النتيجة التى جنيناها من هاته التجربة عبر القرون ؟

قد ينعتنا البعض بالاقليمية الضيقة ، وبأن العالمية تقتضى احتضان كل التجارب الانسانية ، غير اننا نعترض ان تكون التجارب الانسانية ساقطة فى التجريبية والتوفيقية أو التبعية •

واذا كان لابد لكل عشب من ارض ، ولكل ارض من عشب فان على كل ما يظهر على سطح الحركة الثقافية المغربية ان ياخذ لون هاته الارض ، وتلك ضرورة قصوى لكل تجربة ابداعية تبتغى المعاصرة او الاصالة •

الرباط ... سعيد علوش

احمد المدينى

المفرد والمثنى

قصـــة قصيـــرة

اللغـــة ــ المعضلـــة

اتحدث اللغة المغتصبة ، اتحدث لغة غاصت فى اصابعها شعرها واضافرها ولم يبق منها الا مسام مفتوحة . ما يخرج من المسام هو الرشح ، هو بقية الكلام ، هو الكلام المفتت ، المجزأ هو فرقعة تمطى بعض الصدى وتروح فى تلاش واهن هو بعض الجرح ونزيفه لان الجرح مخبوء ، الجرح هو الجوهر، الشرخ الاول الذى مس الارض خرق الدهر ، الداكره . ولم يكن له التآم ولا انغلاق ولن ينغلق كما لن يكف النزيف ، كمـــا لن يكف الصمت الصدى العميق ، كما لن يكف امتداد الجذور وعناق الجذوع ومواكب الخلق الغابوى ــ تلك هى اللغـــة .

على ان أتفق مع غائر الجرح لاتفق معك ، وعلى ان الوح بآجر وأطباق وأوانى الكلمات لاقول اننى ساتخذك دريـــا وصورة ، ما ايسر أن افعل ذلك ، اذ سارصع كل الشوارع التى تمرين بها بالاناشيد والاغانى الوطنية ، وأغدق عليك بما لذ وطاب من الطبيخ الواقعى والاجتماعى ، والوطنى وبقيـــة

الكلام الاخر الذى يردده كثيرا ليغتال ، وكى لا تنجب الارض ابناءها الحقيقيين ، تلك هى المعضلة .

ولذا ، لن اتحدث اليك الا ربعا واحدا ، من داخلى ، اولا ، وخارج اللغة ــ الاتماق ، ثانيا ، فهل تقبلين ؟

لعلى لو قلت أن قلبى فى مشموم النوار هذا ، ستفهمين. لكن ماذا أكون قد فعلت حينئذ ؟ هل أكون قد نقلت اليك قلبى ؟ ما هو قلبى بدءا حتى أنقله ، وهل ينقل ما فيه ، مـا هـى الاحجام والاشكال التى قد تقوم بهذا الصنيع ؟؟ ومشمـوم النوار هذا ، هل يعنى بالنسبة الينا الشىء نفسه أم أتـى استعير ما ارفضه سلفا ، فيه أو فى سواه لاصوغ صورة ، لاى شىء يصلح كل هذا ؟ انى انتشتت ذرات فى فراغ بلا قـرار وتطارد كل ذرة ذرتها وتتفانى الذرات فى اللحاق بى ، بخارطتى وصوتى ، هل ابلغ صوتى ، هل اتجمع فى كلماتى أم تخبو نارى حين تسطع فوق جلدى ، أم تتورم بثور الكلمات ، لا أتجمع ، اتقاذف ولا أمحى ، نعم ، قد اتلاشى ظاهرا ولكن ما تنفـك صورتى أن تتناسخ فى الاسفلت أو السنبلة أو القدح المخلوط بدمى او كل الطرق والمنعطفات المرصودة بالمحق والسحـق والاغتيـال !

ليس سهلا كما ترين ان نتواصل وبيننا سبع سماوات طباقا من الرعب والاصفاد والتكدس الهجين واللحى المعربة المغموسة بآبار النفط المزكية المبللة من تنسم البكارات المفتضة، ليس سهلا أيتها البعد أيتها القرب ، ايتها الفناء السحيق فى الجماجـم .

لا باس ، ليكن ، فلنتواصل ، ولنتجاذب اطراف المـوت. مثلا ، لندخل من بوابة اللغة المعضلة الزمن المعضلة ... هذا الذى ينطق ويتساءل :

« رابحة » الوطن المهجور أم الوطن المدفون ، اعمـــدة الاعدام ، ام أنت بلاد السبية ، ام أنت انا . كيف اكتب عنك اذا ، ونحن نتداخل فى بعضينا ، نحرن ونجمع فى آن واحد ، نرسم دائرة الشنق ودائرة العناق فى آن واحد ، نهرب مـــن جوف الموت الى جوف الصمت للضغط بين فكى الولاء ولنمسى بسطا فى الاعتاب المؤلهـــة .

هيا ، تحركى ، انفضى عنك رقاد الكهوف ، احتراق الحطب ، نبول السنابل الهالكة ، جمعى العواصفه المرصودة فى التمائم ، المنقوشة فى تضاريس الروح والمسوط ، المقصودة من آهة الميلاد الى رعشة الموت ، جمعيها ، انشئينى فيها ، اصمقينى برعد تزلزل له الاركان ، الاقواس المنصوبة ، كذا الابراج ، زلزالنا .

« رابحة » طاب مساؤك وهذا صباحك هارب ، واحد من رفات المخلق يجثو عند رقدتك ، يغطس ، حلمة النظرة الصوت ، فى يقظتك تعبرين لا تلتفت الاعين المرايات مواكـــب الحسرة الاتية ، هو ذا الليل يحلو لنا ، اهمسى ، انفضى عنك التدثر — التزمل ، اشهقى أزفرى ، هل يغتصب وجودك مثلما اغتصبوا ثلاثة أرباع ما فى جوفى — مرحى ، مرحى ، قصتنا، قبيل شراب الغبوق يـــا سادة قصة « رابحة » بعيد الولـــوغ فى الدم قليلا ، الاولى والاخيرة وهاتوا أسماعكم ، كلا ، فراغكم فرقكم ثم ولوا الى فراركم واصيخوا .

البــــــدء

من اى أرض تبدأ العشيرة لتخلق اول فيلق من السبايا وحاملات الجرار ، ومتى كان الطوفان الثانى الذى اكتسحت معه السهول وارتعشت نبيحة على رؤوس الجبال ، جسدك هذا بحر ويابسة فى غمره وانشاره تتوالد بشرية مشحـــوذة

على حد السيف والقضبان ، نمتطى الغيم وتسعى لا تعــرف ما الحدود ، فكل التضاريس الاخاديد تجمعت هنا ، تواعدت على اللقاء فى كثافة الغيم وانتظار الصحو قبيل خروج الغابات وتململ الشواهد فوق القبور ، قبيل رحيلى الى ربوع الذاكرة وارتقائى درج فضاء محتشد بتدفع بشرية الرعب ، بشريــة مجنونة العيون .

صمت متقطع بالمتاريس ، صمت مجزأ ، السلاسل فيه معالم البلاد ، والقيد فمك ، رأسك الاساطــير الملغومــة ، طابور من الاقنان ، اسراب من الجوارى تحج الى اليمامة ، اسماء تستدير رؤوسا محزوزة ترصع الاقواس وتصطف على جانبى الطريق ، مديرة مؤخراتها تحى العلم الدموى . صمت مقتول بحشرجة الازهاق ، هــذا رأسك دولة ، بطلسمهـــا الغيب والوسام الوثنــى !

من اى زمن بدأت فيه هجرتك نحو الاسماء المفارقـــة فى قــرب الدم ، تجاوزت جزر المسير ، نضحت فيك الاشواق، وتدافعت فيك أمواج العصيان والاضطرابات . وجهك هــذا يذكرهم باسترخاء الفصول ونعسة الزمن المنسى ، خلسـة الاحلام ومداعبات الرداد . وجهك هذا عندى يستبيح كــل الفصول ، يأتى من قارات الدوخة ومظاهرات الخلق الهائج فى الاسواق ، تتداخل فيه طبقات الارض ومواقيت الــزلازل فتجذبين معك الصليل وفلول الاسرى من أيام الياقوت والمرجان، وأوقات دق الجماجم وصك العبيد وصد الحلم وخلط النــــار بالانـــواء .

هل اعتمرت قارتنا اخترقتك أحراشها تصاعد فيك البخور مددت رأسك فوق صخرة القرابين . هل تذكرين يوم كنـــت قربانا يزجى ، قربانا سيدة البر الاولى . وجهك هذا تقــذره

احذية الاقزام تتولثين وانت البرارى ، يئن طينك المعربد فى صحو جيلى المدمى فى الخطوات المطبوعة فوقه ، هل ارتديت حصدت حين زوبع وجهك ردم البيوت ، الواطئة التلال مهدها المناجل ، حصدت فى الزوبعة ، حصدت فى الهبوب الكثبان المختنقة ؟؟؟ هل اعتمرتك قارتنا وسرت خلال الجفون خطف البروق ، خطف القبل ، حز الرؤوس ، تراعش ايد تلوح على البعد فى انتظار تدشين مواسم السفك الوطنى وتوزيع النبائح على المواطنين والمواطنات ، الاحياء منهم والامـوات .

قلت ابدا! وآتى اليك يا بلدى ، واسرج على ندوب ضيمك رفات خلائق مسبية ، نعش المغاربة المخصبين ، لكن تململ نبضك قال تمهل ، ترصع بدمع « رابحة » قبل الرحيل ، لا ، ترصع بدم القبيلة المسير ، اذن ، يرتوى دربك الطافح بالنكبات بالصبوات بالقهر والصعلكة ، فتاتى اليك « رابحة » تحمل فوق الجفون مفاتيح دهر جديد ، ستاتى علاماتها :

اخوتنا فى لجبـال
هـزو بنـا لعـلام
وزيـدو بنـا لكـدام
لخيابت دابـا تزيـان

الخـروج رقـم 1

لنخرج اذا ، هيا استعدوا للخروج ، للعراء ، فانيا اتلطف معكم ، لا تتهامسوا وتتغامزوا ، لا تتشاوروا ، متى كنتم أمة التشاور والمشورة ، خسئتم ، امة لتحية العلم المبرح وسما عالنشيد الوطنى المبرح وشرب الشاى المبرح

والاستمتاع بالقيلولة المبرحة ولا تتهامسوا ، ارهبوا ، هبوا للاغتيال ، لن افعل سوى السؤال تلو السؤال ..

تذكر ام رابحة صيف ذلك العام ، وكان عام ذبول وقحط، حين كانت حاملا برابحة ، تذكر كيف أن الليل والنهار تبدل حالهما ، واغبرت سحنتهما . وما عادا يكشفان عن السر الخبيء ، كيف ان رياحا مفزعة كانت تهب فوق جبال الاطلس فتخترق تربته وصخره وتمشى فى عروق الارض جذوع الشجر ويكفهر بعدها المعشب والهواء والحطب ، يتصادى فى جنبات البلاد دوى هو الوعد والرعد والعاصفة ، وتسرى بين الناس فى الدواوير والاسواق وتحت الحصر والخيام المرتقة، تسرى همهمة وتحت الاغطية يتسار القوم بان وراء الاطلس تقف خيول المماليك والاعجام ، وان عليهم ان يطووا خيامهم وحقولهم واشجارهم وهزيل دوابهم ، وان يحفروا لهم تحت الارض سراديب عميقة ، ان ينخروا الطبقات التحتية ، وسيلتقى سردابهم بسراديب اخرى لشعوب آتية من بعيد تروم مركز الارض ، مخلفةوراءها الحرث والسنبل وسرر الاجداد المنعمين ، وأنهم ، جميعا . سيكون لهم شأن واى شأن عند علام الغيوب ، كما سجل ذلك فى اللوح المحفوظ ، وكما نقل الرواة عن عمالنا وخفرائنا وشرطتنا وعسكرنا وضفادعنا وقططنا وبغالنا ونمالنا وأوليائنا الميامين ...

تذكر ام رابحة وكانت فى المخاض كيف ان مناديا نادى فى الناس صيف ذلك العام :

يا عامة الاطلس
يا عامة الاطلس

بامر من حامى الماء والنار والتربة والهواء ، الارض والفضاء وما بينهما ، صاحب السر الاعظم . الشهاب

الثاقب ، بامر منه لا يتم لقاء ولا يعقد نكاح الا بعلمه وبعد اذنه ، واعلموا أن كل ما تخبئونه لابد ان يقع تحت بصره ، فان كانت انثي (وهنا ذكر أوصافا ومقاسات) يؤتى بها عند الانجاب في الحين فما ينبغي ان تتلوث اناثكم بكم حتى يكن زينة وبهاء ويشع ضياؤهن في الافاق ، آق ... (وتحت الخباء المعمد) ... اما الذكور فيخصون في الارحام حتى لا يبقى من ذكر او ذكر في الاطلس سوى صاحب السر الاعظم .

يا عامة الاطلس ، حذار ثم حذار من العصيان فهو آفة هذا الزمان ، ومن خالف سرا او جهرا فلا يلومن الا نفسه وعشيرته ، و... ولن تقوم له بعد في الدنيا قائمة .

تذكر ام رابحة وكانت حينئذ تعاني اوجاع الطلق ، كيف أن اهل القرية هبوا دهشة وفزعا مما راوه . كانت المرتفعات المحيطة قد استطالت وتدانت وكانها تتسار فيما بينها ، وبقيت على تلك الحال فترة تقاس بنبض القلوب ، وفي رواية أخرى بشروط الخواطر . تذكر أم رابحة ان الجبلة انحنى عليها وأسر اليها بكلمة واحدة جاء بعدها ، العساكر وحاصروا الارض — الاطلس بحثا عن الكلمة — الام — رابحة .

هل انفلتت منك الامان حتى اندفعت تدخلين أحشاء الجبل أم ان هذي ارض ما عاد يطيب بها المقام .

هل ساخت اقدام العساكر في تضاريس تكوينك السفلى ام انك ، انت ، آثرت النزول الى القرار ، يدثرك رعب الفائت في الحاضر .

هذه « رابحة » فلتطلع من ذنوب حزنك المدفون ولتخرج ارهاب العسكر ، ولتقرأ سورة الوطن ، عودا على بدء .

... وظل العساكر يحاصرون المنطقة ، ويحصـــدون بالرجال الرجال ، ويرابطون عند كل بطن منتفخه . بـــل ان شرطة خاصة انشئت ودعيت نسرطة مراقبة البطون ، متساق كل أنثى او ذكر بعد الطلق الى مستقر لهما مرصود . وانشئت شرطة خاصة من عتاة المبصرين توغلت فى القرية والســوق ((والمسوقة)) وشماب الاطلس ــ كانوا يريدون ((رابحـــة)) وكانوا يحسون فى نظرات الناس وانفعالاتهم ، انفراجـــا وتكشيرا ، انها موجودة بينهم ، قريبة منهم ، وانها تكبر بـــين حضن من احضانهم رغم انهم لم يتركوا مكانا الا ونبشوه حتى انهم عمدوا الى الهواء محللوه الى عناصره الاولية ، فلربما تكون منتشرة فيه ، ولكنها ، هناك ، كانت هناك ، كانت هناك، تراها ، ولا تحسها ، يبقى ان ترقى فى ذلك .. وأن تتعلق ، ولا تخبو ولا تستمرىء الدفء الاول اذ تعلق هات عشقك الاول وتعلق رعبك رعبك لا شىء غيره .

الخـــروج الثانـــى

ذكر شهود عيان انهم راوها بام عينهم فى احدى اهراء السكر بالدار البيضاء ، ناصعة كالثلج تتخللها خيوط عامرة بالنمل ، لا تلمس والا ذابت واغرقت المكان . نظراتها واسعة حتى لكن المدينة تاوى اليها كلها ولا تضيق بشىء ، تمتـــد اطرافها فى جهات المملكة الاربة ، لا تحرص على شىء ســـوى على البحر خشية ان يرحل .

ذكروا أيضا ان بعض المخلوقات ليســت بالانـــس ولا بالجان تظهر كالطفح على جلدها فتدب فوق جبالها المحمولـــة وتاتى اعمالا منكرة منها تحريض اشجار واعواد الثقـــاب والكراسى والمصابيح الكهربائية والغمائم والميـــاه الجارية فى الصنابير ، وبعض هموم المصالح البلدية .

زادوا فتذكروا أنها تدهن الخمر والغيوم والحتين الـى الاطلس آخر متشاغلها الحصول على بطاقة التعريف الوطنية ... وقلت لها اسكنى دمى وإنتشرى قلاعك والجبال فى تداخل طرقاتى ، سافرى فى الغزوات المبيتة ، اهتاجى فى الرقـاب المنحنية والسحنات الشوهاء . ليرقص دمعك الاعصار ما بين الاطلس المقصوف وأعصاب الريف والهجرة . تمتـد مـى خطوك بلدانى وفى مجرى دم غيلة فتنتشر الامداء مسفوحـة فاسمع أنى ليلك الخارج توا من دهليز دهرك الفاضم وتنثنى المسافات . تخرج ، ثانية ، من غياهب صمتك الصاعـق عمران ينافس بلدانى ، وتمتد الاصابع موسومة بصك القتل ووشم النفى وأرجو تاريخك ينطق من حنجـرة المسغبـة . مشينا وهذا الزحف قدامى يشد زمام النار وشهب ظفر مختنق قبيل أوان الطلق ، قليلا بعد أن تسامع الصهيل بالنذير وارتدت الجفون عند سقطة البطل . هل تسمحين صوتى الداخل تـوا من جذع النخيل المناطح ، رأسا ، كثبان الخلق المتراكـم ، أكداسا فى البيعة أكداسا فى السبحة أكداسا فى فتل حصـر الموت ، بينا نشيدك ممعن فى الغوص خلف تعاقب الهزات . ماذا يبقيك هنا خلفا حتى تجىء رايات الغزاة تقمط وجهـك المحبوب فى كفن البيعة تلو البيعة والفتكة تلو الفتكة ، ها أنت تتلكئين تبطئين فى انتظار بطاقة التعريف الوهمية ، رعشـة واحدة ، اختلاجة عضو ، وتأتى مفاتيح الوطن داخل جمجمة، فى جماجمكـم .

اكتسحينى ، انطلقى خارج وثائق التآمـر المحبـوك ، خارج فورة الجرح واحزاب المناحة ، كلى واشربى من المهد الاتـى .

أنا لـم ابدأ الا من خارج الصمت ــ اللغة ــ هتـك الاستار واستفزاز نعيم السلالة . اللغة تختبىء فيك وحين

يصهل فيك الاطلس الموثوق وتنعتقين من حضرة الاوجاع نجيء معا فى طوفاننا حين يفيض منك أم الربيع ونجلس معا ، سويا، جميعا أيها السادة ونتحدث باللغة الكاملة .

احمد المدينى

، حمـد الشيخ مـوسـى

وامتلأ الجو برائحة غريبة

(اقصـوصة)

... الثامنة مساء لآخر ليلة من ليالى رمضان لذلك العام . الليل يزحف على اطلال البيوت الطينية العادية ... كأنما أخطبوط رهيب مد آلاف أذرعه حول فريسته الضعيفة المستسلمة .

انتابنى شعور بالغم والانخذال حين سمعت طلقات المدافع تدوى والصفارات تنذر بحلول العيد السعيد . لا مفر ... يتكرر هذا كل عام ، وسيبقى كذلك على الدوام هربت.. والقيت بنفسى فى غياهب زقاق قريب من أزقة المدينة التى يفرزها الشارع الرئيسى على جانبيه فتتطاول وتضيق وتتلوى ...كأمعاء قديدة لذئب جائع . وقد ناست مصابيحها المتسخة الباهتة فأوشكت أن تنطفىء .

تعالت من داخل تلك المقابر الجماعية المتزاحمة أصوات متنافرة انتزعت من ذاكرتى صورة عائلة زنجية تزمع الهرب قبل ان يصل غزاة الشمال الى كوخ العم توم . تكامشت

خطاى .. وابطات سيرى وانا اتامل عتبات الابواب بتدفـــق منها ماء آسن يفوح برائحة صابون كريه وقد استنزف كـــل اثر للطهارة فيه ، فتحول الى سائل رمادى شائه هو عصارة القذارة المبيمة . يخترق فتحات الابواب ويسيح على حافـــة الرصيف ثم يتجه نحو مجراه العميق فى الشارع الرئيســـى وكانه قيء الشياطين . وقد حظى جوربى منه بنصيبه المحتوم.

ملعـــون ابوك مـــن حذاء .

ثم وقفت اتتبع سير الماء . وقد نسيت ما ملأنى به صوت المدفـــع من اســـى.

تأملت ما بداخلى، فكان شيئا فاترا لا أتبين حقيقتـــه .

برد هذا الشعور فجاة حين سمعت صوت امراة يصرخ :

صالح .. آجى .. آجى ياولدى أجى نغسلك مـــــع اخوتـــك .

لم يأبه الصبى بصوت امه وبدا عليه كأنما يعقد صفقـــة مع اقرانه الصغـــار .

آجى ياقلبى .. آجى يا ملعون .. غده العيد .. آجى.. ما يجى عليكم عيـــد ..

وضاع صوت الام حين شب الصغار جميعا والقوا مـــا بايديهم الى السماء وصرخوا بصوت واحد .. هيـــــه ..

غـــده العيد ونعيـــد
وننتف لحيـــة أسعيـــد
واسعيـــد مالوشى بقـــره
ينطـــح راســـه بالصخـــره
غـــده العيـــد...

اويلى أويلى على العفاريت وأشنو داير فيهم واخسدت تصرخ وتولول دون جدوى ودون ان تشعر بوجودى على بعد خطوات منها اتامل هياتها وثوبها الندى الفضفاضى عقدت وسطه حول خصرها فختف عن فخدها دون ان تحرت له . وانتفش شعرها الفاحم فبدا كعش غراب مهجور . استمرت فى النعيق ..

ثم استدارت نحو جدار البيت واقتلعت منه قطعة طين لوحت بها مثل الصبى السادر فى صراحه وشتاده ، يدور بين اترابه كثوب الاكروبات ، يمرر بحمه نابضه مجيبا الحجر الذى سدد اليه فيلتقطه ويرمى به امه .

لم تكد الام تكمل صرخها .. اذا بالطفل الصغير يمرق كالسهم من تحت ذراعها و يلقى بنفسه فى الشارع صارخا : غده العيد وبعيد !.. فعدت الام صوابها، وراحت تجرى وراءه معوله مستنجده بى :

« اخوى شده لى يرحم والديك » وكاد يختفى عن ناظرى قبل ان اسمع صوت سياره تنزلق على الطريق وتصر عجلاتها صريرا مخنوقا .

ويسود الصمت لحظة واحدة .

صمت رهيب مطبق يغوص قلبى معه الى عمق سحيق.

لم اتدارك انفاسى الا حين تنبهت على صوت المراة يدوى بصرخة مفزعة كأنها خرجت من مقبرة للمعذبين .

شهقت شهقة مرعوبة مختنقة وانا أجرى نحو الجمع الغفير من الناس الذين تراكضوا صوب المكان ، جمدت فى مكانى !! ..

الطفل يتكوم فى مستنقع الدماء تتدفق من فـــمه . والام ملقاة الى جانبه مغمى عليها تطوقه بذراعيها . اشحت بوجهى عن ذلك المنظر المريع لتقع عينى على جدول الماء الاســـن المنحدر من عتبات الدور ، فى الزنقة القريبة ، المتفرعة مـــن الشارع الرئيسى الطويل . وقد اختلط بدماء الطفل الصريع فتحول الى ماء بنفجى قاتم يتصاعد منه بخار الدم يكمـــل سيره فى مجراه المتيق . وقد ازداد سرعة وتدفقا .

وامتلا الجو برائحة غريبة .

* * *

ـ كل عام وانتم بخير أسيدى .

وتابعت سيرى دون ان أدرى الى أين .

محمد الشيخ موسى
الدار البيضاء

خليل الدمون

رواية

قصة قصيرة

روت الصحف الاجنبية عنك قالت :

« صناعة العسل فى بلدك لازالت تقليدية بالرغم من المجهودات الجبارة التى يبذلها المسؤولون لتطويرها وتزيده فى انتاجها . انما تبقى عسل بلادك — على كل حال — حرة يستشفى بها الناس وتصفى الدم والامعاء خصوصا اذا تناولها الانسان قبل الفطور . وهى أحسن الف مرة من العسل الاصطناعية التى أفسدتها الآلات ...

« حملت قربتك فوق ظهرك تريد بيعها فى سوق من أسواق المدينة ، وانطلقت من مدشرك ، باكرا وانت تبتسم (1) : ربما للفجر ، ربما للشمس ، ربما للنقود التى ستحصل عليها بعد عملية البيع ، ربما كانت عادتكم انتم الفقراء ... انطلقت عبر الحقول والاسلاك تحمل ماضيك وحاضرك ومستقبلك يتبعك كلبك المسكين (بوبى) تجران معا ذيول قدركما وتسيران جاهلين كل شىء عما ينتظركما بخطى متعبة منهوكة مثلقة تنتقل على تراب

سطحته الارجل والحوافر . كم تحلم — وأنت تسير — باطنان من العسل تتصرف فيها كما يتصرف الحاج موسى وتكـــون عليها الامر الناهي . لكن هذا الزمان قاس على ما يظهر ، ويدك قصيرة ... وكم تود ان تقطع هذه المسافة وانت ترحب تساحنة ضخمة مكتوب عليها اسمك بحرف غليظة . لكنك تقطعهـــا مشيا على الاقدام ، حتى (بوبي) يتبعك باستمرار . لعله يحلم مثلك ويتصور انه يتبع ملاكا كبيرا في استطاعته ان يستجيب لكل رغباته ، ولعله رغباته ، ولعله يتمنى أن يصبح كذلك مثل كلب الحاج موسى .

« تسيران متطلعين الى السوق الذى أصبح هدفكمـــا الحقيقي . شيء واحد علمكه الوالد قبل وفاته : الا تفرط في الطريقة التي يتبعها أفراد أسرتك بل ويتبعها كل أفراد القبيلة: الطريقة الحمدوشية . القندورة والمزمار لا زالا معلقين فـــى المسمار بجانب الفراش فوق رأسكم تنظرون اليهما في الصباح والمســـاء ...

« بعد طريق طويل تجنبتما فيه الالتقاء بشخصيات القبيلة خوفا على رأسمالكما وصلتما الى السوق . أديت ضريبـــة السوق ودخلت لكى تجرب حظك في هذا اليوم ، وكأنك تراهن بوجودك ، وتشعر بخليط من الاستبشار والتطير والامـــل والتعاسة والتمرد . تمتمت في نفسك بعد ما رفعت بصـــرك الى السماء : « اللهم الرزقني من عندك ، وابعد عنى المحتالين ، ويسر طريقي .. » يشحب وجهك ألف مرة في اليوم ، ويصفر، ويتقولب مع الحيثيات والظروف : مفروض عليك أن تظهـــر السعادة والارتياح ، وأن تقتنع بما عنـدك ، وأن تتحكـــم في وجيب قلبك ، وحركة أطرافك المهم عندك أن تبيع عسلك وتعود الى بيتك بالدقيق والزيت ، فهناك ايضا من يحاسبك الحســـاب العسير .

ـ هـا العسل حـرة ! ها العسل حـرة !

لابد من أن تنادى وتدور فى السوق بالرغم من الحرارة المفرطة ، ولابد من أن ترفع صوتك فوق صوت البائعين ، خصوصا وأن العسل اضحت فى الايام الاخيرة من الكماليات .

ـ بكم تبيع العسل ؟

« ولمع بريق الامل ، واحسست بشىء من الراحة . فاذا بالطالب هو الحاج جلول الذى يجلس وسط حانوته جلسة خاصة توحى بنوع من الارستقراطية ، وبجانبه قطته الوديعة (نونو) يلاعبها ويداعب شعرها . تطيرت لتوك لان الحاج جلول من أتباع الطريقة العيساوية ، وله عداوة مع أبيك . تماسكت ولعنت الشيطان . قدمت اليه بضاعتك وصوت تتلو محاضرتك حول مزايا عسلك الكثيرة . وبعد جدال طويل حاولت أن تقنعه بان الصفقة ستكون مربحة ، واقسمت له بكل ما يصلح للقسم أن عسلك حرة خالصة . كما انه حاول ان يقنعك بان الثمن جد مرتفع ، وبانكم لستم اهلا للثقة ، وبانكم مستعدون لتقسموا بكل شىء من اجل سنتيم قذر . كدت تغضب لولا انك تذكرت ابناءك وراسمالك .

« وكان لابد من أن يذوق طعم عسلك ليتاكد من صحة ما تقول ، وذلك بعد ما احضر المختصين فى صناعة العسل المتواجدين فى السوق . وما هى الا دقائق حتى تجمع حولكم جمع غفير من الناس . غمس السيد الحاج أصبعه فاذا بقطرة تسقط على الارض ، من غريب الصدف أن كان عصفور على غصن شجرة وثب كالرمح على تلك القطرة . لم تتمالك القطة (نونو) فانقضت بدورها على العصفور الذى أردته قتيلا فى لمح البصر . خرج بوبى من صمته نظرا للحساب المزمن الموجود بين القطط والكلاب ، فهجم على القطة وعضها عضا كبيرا حتى اسلمت

أرواحها السبعة . هاج السيد الحاج وراح يشتم الكلاب جميعهم من حيوان وانسان وحمادشة ، وقفز من المخدة التى كان يجلس فوقها ورماها على الحاضرين . ظهرت للعيان عصا غليظة كان يخفيها تحته استعدادا للطوارىء ولمثل هذه الحوادث . أمسكها بيد من حديد وتوجه نحو كلبك الذى اراد التستر خلف الارجل، وصار يضربه ضربا وهو يعوى الما الى اخذ صاحب الامانــة امانته . لم تشعر الا وانت تخرج خنجرك ، وتطعنه فى الصميم ، ثم طرت مع الريح نحو قبيلتك .

« تطور الخلاف اذ احتمى كل منكما بقبيلته ، وأصبح شرف القبيلتين مهدورا بعد تبادل التهم المستقاة من التارخ القديــم والحديث ، كما أضحى السلم مهددا فى المنطقة كلها لانه مــــن الضرورى ان يتضامن معكم كل الحمدوشيين فى العالــم ، وان يتضامن مع قبيلة الحاج جلول جميع العيساويين. فكان ما لا مفر منه: الحرب التى دامت تسعة أعوام وتسعة اشهر وتسعة ايام وتسع ساعات ، وتسع دقائق (2) . ولم تتوقف الا بعد وساطة قبيلة الحاج وبعد استشهاد الفى شهيد من قبيلة الحاج جلول، ومقتل عشرين الف من اهل قبيلتك. عند نهاية الحرب تم التوقيع على وثيقة الصلح التى تنص على ما يلى :

1 ـ البادى اظلم

2 ـ ضرورة احترام حقوق الاخوة فى الدين والعروبة

3 ـ ضرورة احترام حقوق الجار .

4 ـ عدم اللجوء الى قانون الغاب

فعدت انت الى عسلك وعاد الحاج جلول الى مجلسه وكان شيئا لم يكن والدنيا بخير .»

ـ وزادت الصحف قائله : « يمكن ان تسقط قطرات اخرى في أماكن أخرى من العالم العربي سواء في دمشق أو في القاهرة ، او في الرياض .. ، لنتصور النتيجة .» (3)

تعليق : لعن الله الكاذب الاول .

خليل الدمون
76 — 6 — 20

هـــوامش :

1 ـ انظر صورتك في الصحف الاجنبية .

2 ـ علـى وجه التقريـب .

3 ـ استسمح اذا كانت الاخبار غير منقولة كما قرأتها .

محمـــد ابـــراهيـــم بـــوعلـــو

الميـــاه ..

(اقصـــوصـة)

يظهر أن امطار هذه السنة ستعوض لنا مـــا ضيعه علينـــا جفاف السنوات الماضية ، فالسنوات الماضية اظهرت لنا قسوة الطبيعة كما اظهرت لنا ايضا قسوة البشر ، غير أن امطار هذه السنة ستغسل الارض والقلوب ايضا ، وستعرف المنطقة خيرا عميما بعد ذاك الجفاف المريع ، هذا ما كان يفكر فيه كل سكان المنطقة ، وانا واحد منهم ، ولو اننى لا اعتقد أن باستطاعتى ان انسى بسهولة ما تعرضت له من قسوة (الحاج ادريس) وطريقة استغلاله لظروفنا الصعبة فى الاستيلاء على الحقل الذى ورثته عن الاجـــداد ..

فالحاج ادريس لم يكن يعرف قلبه الشفقة ، بل كان يدرك ان الانسان يمكن استغلاله اذا مـــا انك اظهرت له أنك تشفق عليه وتسعى لمساعدته لذا اتخذ هذا الاسلوب فى اغناء ثروته ، وتوسيع راضيه ، ولم اكن اعرف هذا حتى اصبحت ضحيته، وبعد فـــوات الاوان ..

فالقطعة الارضية التى ورثتها كـــانت تقـــع بجانب حقلـــه الكبير ... ولما تعرضنا للجفاف تقدم آلى بمساعدته المرة تلـــو الاخرى ، ولذا كنا أنـــا وزوجتى (يامنة) لا نذخر دعـــاءا من أدعيتنا له بدوام الصحة وطول البقاء ، فالمنطقة التى يكون فيها أمثال هذا (الحاج) لن تعرف القحط ابدا حتى ولو اصـــابهـــا الجفاف ..!، ولكنه كمالم يكن متوقعا، أجهز علينا على حين غفلة، ونحـــن منشغلين بمرض وليدنـــا ان وجدنا انفسنـــا نبيع لـــه ((الارض)) .

و مـــات ولدنـــا الوحيد ، وفقدنـــا حقلنـــا ايضـــا ، وكدنا نرحل عن المنطقة لولا حصـــافة (يامنة) التى الحت ان نعمل عند (الحاج) وتدخلت لديه هذه المرة وقبل ليظهر لضحاياا جدد مدى رحمته وشفقته بنـــا ، وتم آدراجنا مع عماله نشتغل فى ارضنا اجراء مياومين تحت اوامر (عمى بوشعيب) الذى كان من أوائل ضحاياه ، والذى اصبح فيما بعد هو يده اليمنى فى كل شىء شىء ..

أمطار هذه السنة فى استطاعتها أن تروى الارض وأن تغسل القلوب، ولكننى لا أعتقد أن باستطاعتى أن انسى ما حل بنا أيام الجفاف بعد هطول أمطار هذه السنة ، فالحقول — بمـــا فيه حقلى السابق — اصبحت مخضرة تماما ، وتحتاج الى ثلاثـــة اشهر او اربعة لتينع غلتها ، وستعوض على الذين ضاعت منهم فرص الحرث فى السنوات الماضية ما ينسون معه انهم عرفوا القحط فيما مضى ، ما عدآ أنا الذى لم أعـــد املك مـــن الارض أى شـــبـــر ..

وكما بدآ لنا اخيرا ان الامطار نسيت نفسها هذه المرة كما نقول ، فلقد اغدقت علينا بما فيه الكفاية او اكثر ، بل اكثر وزيادة فالماء مثله مثل الخمر قليله يبعث فى الذين يتناولونه الانشراح ،

وكثيره يفقدهم السيطرة على أنفسهم ، بل يخل بتوازنهم ٠ ٠ ثم يصبح انشراحهم هما وكمدا ٠٠٠ ولــذا يظهر أن مزروعـــات المنطقة دخلت فى هــذه المرحلة من الــلاتوازن ، ولا شك أنهــا ستتعفن فيما بعد اذا لم تكف الامطار عن النــزول ولو لبعــض الوقت ، وازداد قلقنا جميعا ، ونحن ننتظر الصحو ٠ بل هناك من كان يتمنى بضعة أيام من أيام الجفاف تحل بنا لتقيم بعض التوازن بحرارتها وشدة قسوتها ، حتى تستقيم الاحوال بعض الشيء ، ولكن الامطار ــ فيما يظهر ــ لا يهمها من أمانينا شيئا ، بل وكأنها تأسفت على طول غيابها عنا فأحبت ان تعوض لنا على ذلك الفراق الطويل بهذا الحضور المستمر ، ولــذا لــم يكــن باستطاعة أى واحد منا أن يفعل شيئا سوى الانتظار ٠ ٠

تضايق أغلبنا من هذا الانتظار بل واعتقد احدهم بانه محكوم علينا أن ننتظر الصحو كما كان محكوما علينا أن ننتظر المطر ٠٠ وتساءل أليست هناك حالة أخرى غير هذين الانتظارين ٠ ٠ ؟ !

واشتد قلق الملاكين الكبــار ، ومن بينهم (الحــاج) الذى اصبح فى حالة هياج دائم ، يرعد ويبرق و ٠٠ يمطرنا من لعناته ما يطيب له ، وليس فى استطاعتنا الا الصبر والانتظــار ، وان كان انتظارنا لا يدخل فى الانتظارين السابقين ، لاننا ننتظر فرصة عودة الارض لنا حتى ولو كانت هذه الفرصة من باب المستحيل ٠٠

وارتوت الارض تماما ، ورفضت أن تبتلع أى نقطة أخرى من المياه ، لذا أخذت المياه تتجمع فوق السطح ، وأخذت ارجلنا تغوص ونحن نسير فوق التربة المبتلة ، بل ان بعــض البيــوت الواطئة أخذت تمتلىء بالمياه مما دفع أهلها للبحث عن امكنــة أخرى للاستقرار فيها ريثمــا يظهر الصحو ٠ ٠ ٠

ولكــن متــى ٠ ٠ ٠ ؟

و فى مساء هذا اليوم ، وأنا اعود و (يـامنة) من احـدى القرى المجاورة ، وقد حملنا على (البغل) بعض اكياس الشعير للحاج ادريس اذا بالمياه تغمر المنطقة .. ولم نشعر الا والمياه تجرفنا جميعا فى اتجاه الوادى . . .

مرت بنا برهة حاسمة نفكر فيها فى مصيرنا من غير أن يقول احدنا للاخر شيئا .. لقد نظرنا الى حقلنا من بعيد ، والميـاه تغمره تماما .. ونظرت الى (يامنه) التى التفتت الى فى ذعر شديد ، وشعرنا بان نهايتنا تشرف على لحظاتها الاخيرة ، وما هى الا لحظات حتى وجدتنى أتحسس طريقنا بعصاى ، وأنـا أقترب من شجرة كبيرة من أشجار الكافور ، ما أن وصلنا اليها حتى ربطت بها الحبل الذى كنا نشد به أكياس الشعـير التى جرفتها المياه امامنا ، وربطت (يامنة) من وسطها وربطت لجام البغل بالحبل ، من غير ان أنسى أن أشد نفسى اليه أيضا . .

ولم يلبث تيار الماء ان اشتد فى جريانه جارفا معه ما يجده فى طريقه .. فى البداية مرت بنا أكوام التبن ، بعضها ما يزال يوجد فوقه الدجاج أيضا ، ثم أخذت تمر بنا الاخشـابِ ، ثـم الماشية ... كان المنظر حزينـا ، ونحن نشـاهد بعض ادوات منزلنا وعملنا تمر أمامنا فوق سطح المياه . . واخذنا نرتعش من شدة البرد ، ونحن صامتين .. لم يكن فى استطاعتنا الا ان ننتظر . . .

ثم على حين بغتة وجدنا بيننا بعض الجيران ، وقد حملتهم المياه مع بعض جذوع الاشجار الضعيفة التى كـانوا يتشبثون بها ولا شك .. وتوقفوا بالقرب منـا محتمين مثلنـا باشجـار الكـافور الضخمة .

و ظهـر (عمى بوعزة) على سطح المياه بطفلين بيديه ،

وطفلة بفمه . . ! كانوا أطفال (الحاج ادريس) الذى كـان يعتلى فرع شجرة تجرفه المياه فيما تجرفه من قش . .

وبدأ (عمى بوعزة) انه فقد السيطرة على فمه فترك الطفلة تفلت من بين سنانه فجرفتهما المياه وهى تصيح ((بـابـا . . بـابـا . .)) بصوت يقطع نياط القلب لا يستطيع المرء معه الا ان يتبعها لانتشالهـا من موت محقق ، وكدت أن افعل لـولا اننى وجدتنى مربوطا الى الشجرة . . واخذ (الحاج ادريس) يصيح فى (عمى بوشعيب) ويلعنه بدل ان يتبع ابنته لينقذهـا . .

ونبهه احدهم الى ان عليه ان ينقذ ابنته بدل سب وشتم شيخ مسن لا حول له ولا قوة . . وانتبه الى موقفه المحرج فتـرك جدع الشجرة واسلم نفسه لتيار الماء الذى جرفه بعيدا ونحن نسمع استغاثته بصوت يدعو الى الشفقـة ، ثم لم نعـد نسمع شيئا سوى صوت المياه المزمجر . .

واقبلت نحونا بعد حين فرق الاغاثة . . وسالتنا فى البداية عن (الحاج ادريس) وعندما اطلعناها على مصيره المحتـوم اخذت تنقلنا الى الاماكن العـالية من المنطقة . . ولم نصدق انفسنا اننا نجونا الا بعد ان كنا نقرب ايدينا من النار ونحـن نستدفىء بحرارة الحياة التى اخذت تجرى فى عروقنـا . .